مِيرَاث الدَّم

obeikan.com

الكتاب : ميراث الدم
المؤلف : رانيا حجاج
تصميم الغلاف : مي يسري
تدقيق لغوي : منال عبد الحميد
رقم الإيداع : ٢٠١٤/١٩٢١١
الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٧٧-٦٤٣٦-٨٢-٤
الطبعة الأولى : ٢٠١٥

٢٠ عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

مِيرَاث الدَّم

رواية

رانيا حجاج

ن للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى حبى الخالد (زوجى العزيز)..

إلى نبض قلبى الصغير (صغيرتى ليان)

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

بديعة.. طفلة لم يكتب لها أن تحيا حياة طبيعية ككل فتاة صغيرة، ولدت لعائلة امتهنت سفك الدماء، عائلة نالت شهرتها لمجرد أنها مجرمة، توفيت بديعة بعد ثلاث سنوات بحريق بإحدى الملاجئ التي أودعت فيها بعد إعدام عائلتها، عن عمر لا يقل عن العاشرة. ربما لم تكن تستحق ما حدث لها من ظلم لمجرد أنها ابنة ريا السفاحة وحسب الله؛ لذا تخيلت لو أن القدر منحها حياةً أخرى قد تعوضها عن سنوات عمرها التي لم تعشها، كيف كانت لتعيشها؟! فأخذت أنسج هذه الرواية، لعلي أمنحها فرصة وإن كانت من نسج خيالي.

obeikan.com

obeikan.com

(١)

بديعة.. نعم اسمي بديعة، ذلك الاسم الملعون من الجميع، تعرفني؟!!.. نعم تعرفني فمن هناك من لم يعرفني.. تذكرني؟!.. أتوقع ذلك فأنا جزءٌ لا يتجزء من حكاية يحكيها الجميع، ولكن أرجوك لا تظلمني فليس لي يدٌ بكل ما حدث، فما أنا غير ثمرة صالحة سقطت من شجرةٍ معطوبة، ليس لها جذورٌ في الأرض ولا روحٌ تضج في السماء.

أرجوك توقف.. كفاني عقاب، فلا تعاقبني فلقد انتهت حياتي يوم قدمت عائلتي للموت.. ولكنهم يستحقون.. هكذا أخبرني الجميع، فما هم غير قتلة لم ترحم ضعف ضحاياهم من النساء، غرتهم الدنيا فاعتقدوا أنهم بظلمهم أقوياء. نعم.. أنا ابنة ربا وحسب الله، فقط في شهادة الميلاد لكني في الحقيقة أنا لست سوى طفلة أتت للدنيا بلا أبٍ معطاء ولا أمٍ حنونة، فأرجوك لا تحكم عليّ، واسمع قصتي قبل أن ينطق لسانك بحكم الإعدام، فأنا لست مثلهم.. أقسم لك.

سأبدأ منذ اللحظة التي اعترفت فيها للضابط، بأن أمي وأبي وخالتي وزوجها قتلة، ربما علمت بأن ما أصنعه خطأً وربما لا. فكلما تذكرت ما فعلت أشعر بالذنب، ولكن ما إن أتذكر ما كانت تفعله بي أمي، تنتابني مشاعر الحقد عليها وأستسلم لفكرة أنها تستحق ما حدث لها. لا تستعجب فلم تكن أمي ككل الأمهات التي رأيتهن ممن يحملن أطفالهن تدليلاً، على الرغم من كوني وحيدتها. إلا أنها كانت تعتبرني قطعة من أثاث المنزل، لا حق لي بأن ألعب أو حتى أن آكل الحلوى. كنت أرى

الأطفال كل عيد يحملون بأيديهم عصى الحلوى ويرتدون ملابسهم الجديدة المزركشة، بينما أنا أقبع داخل منزلنا بثيابي البالية، لا أخرج إلا لقضاء احتياجات أمي أو للذهاب لخالتي سكينة أخبرها بأن والدتي ترغب في رؤيتها.

كنت محط سخرية الجميع من الأطفال في الشارع، حتى عائلتي داخل المنزل. ذهبت مرة إلى والدتي أسألها أن تعطيني مالاً لشراء الحلوى، ولكنها لم تعبأ حتى بالنظر إليّ وعندما ألححت بالسؤال عليها، دفعتني إلى الأرض صارخة تطلب مني أن أغرب عن وجهها. هذه هي أمي، ولكن رغم قسوتها تلك، كنت أحبها لم أعرف لماذا؟ ربما لأني أعلم بأن ليس لدي أحدُ سواها. فمن يوم جئت إلى هذه الحياة لم أعرف أحداً غيرها، لأناديه بأمي.

أتذكر يوماً بينما أمي وخالتي في حال التجهيز لدفن إحداهن، أنني تسللت خفية إلى جثتها وأخذت منديلها المزركش بالألوان، ذلك المنديل الذي طالبتها به أياماً وليالي وهي ترفض بدون أن تعيرني أي اهتمام. فلم أهتم وقتها بذلك الذهب الذي يعمي الأنظار كما اهتمت أمي، بل ظلت عيناي منصبة على ذلك المنديل الذي وضعته على رأسي اليوم التالي لأزهو به بين بنات حينا. وكأني أحاول إغاظتهم.. وكأني أحاول أن أثبت بأن لي أماً تحبني وتهاديني الهدايا مثلهم.

ويا ليتني ما فعلت، فلقد تعرفت على المنديل والدة الضحية، واتهمت أمي بإخفائها وبالرغم من إنكار أمي الدائم، إلا أنها لم تصدق وهددتها بالذهاب إلى الشرطة، لولا أن والدتي أنهت الموضوع معها بإلحاقها بابنتها. لم أنس ذلك اليوم في حياتي، فقد ضربتني أمي بشدة، وقامت بإلقائي في الغرفة حيث يدفنون قتلاهم. يا لها من ليلةٍ مرعبة تلك التي قضيتها هناك. لم أنم طوال الليل، وأخذت في البكاء وأنا أتوسل لأمي أن

تخرجني، ولكنها أبت ذلك فحسب قولها أني كنت سأقودهم إلى حبل المشنقة.

أتعرف كيف هو الظلام.. إنه أشبه بشبحٍ يرتدي معطفاً أسود يلف ضحاياه في المساء. هكذا كان الظلام يلفني كإحدى ضحاياه، وأنا أختنق بين ذراعيه في غرفة لا يغطي أرضها شيئاً سوى التراب ورائحة الجثث العفنة. لوهلة شعرت بأني كنت أحلم، وأني بالخارج أجلس مع أمي أحدثها بما أريد، ولكن الحلم انقلب رأساً على عقب حين شعرت بيدين تمتد حول رقبتي تحاول خنقي، وكأن ضحايا أمي عادوا للحياة ليأخذوا بثأرهم مني، وأنا التي بلا حول لي ولا قوة. لأول مرة أشعر بما كن يشعرن به وهن بين يدي أمي .. يدي الموت، الهواء ينفذ وكأن متسع هواء الغرفة قد فرغ إلا من الخوف.

أكره الاعتراف بأني لم أستطع فعل شيء مع أمي، ولكن ماذا كان بمقدور طفلة لم تستطع أن تأثر لنفسها بحب والدتها أن تفعل. عجزت عن الحياة وقتها كما عجزن هن، حتى أفقت على صوت أمي تهز كتفي وأنا أكاد أتلفظ بين ذراعيها آخر أنفاسي – أو هكذا ظننت- في هذه الحياة. ما إن أفقت حتى بدأت بالصراخ كمن تلمسها الجن، لأول مرة أشعر بأن والدتي قلقة عليّ، فهل يمكن للموت أن يجعل قلب أمي ينبض بالحياة. لم تمض دقائق منذ أفقت، حتى عادت إلى ما كانت عليه، تركتني و هي تنظر لي بلا مبالاه: "خوفتيني عليكي يا بت .. ما أنتِ زي الجن أهو .. قومي يله روحي على أودتك .. اتخمدي" .

ربما لو لم تفعل هذا، لشككت بأنها أمي.. ربا.

* * *

obeikan.com

(٢)

الحياة والموت اسمان يندمجان معاً في كثيرٍ من الأوقات، فهناك من يعيشون كأنهم موتى وآخرون يموتون وهم أحياء بداخل من يحبون. يا لها من حياة غريبة تلك التي تفرض علينا قوانينها وتأمرنا بالانصياع بدون أن تستمع إلينا. أول مرة شعرت فيها بالحب – أو ربما بالعطف- كانت من قبل ضابط الشرطة، الذي جعلني بكل بساطة أعترف له أو كما فعلت ضحيت بعائلتي من أجله. كان يكثر الاهتمام بي، كلما أعطيته معلومة جديدة، فكنت أحاول تذكر كل شيء لكي أستمر في الحصول على الاهتمام و العطف. كنت كالجائع الذي ما إن ذاق الطعام حتى أخذ يغرف منه غير مبالٍ بما سيؤول إليه الأمر من التخمة المؤلمة.

إلى هذا الحد كنت أحتاج إلى من يمسح على رأسي اليتيم، ليخبرني بأن ما زال هناك من يهتم بي. الحسنة الوحيدة التي أذكرها لخالتي سكينة هي إعطائي المال لشراء حلوى لي، كلما أرادت أن تنفرد بأمي. كنت أسعد كثيراً لذلك، وأدعو أن تكون أمي مثلها في إعطائي للنقود، حتى عرفت السبب الحقيقي لفعلها ذلك. فبعد حادثة المنديل، أصبح التخلص مني وقت الدفن مطلوباً، فلم تكن أمي لتخاطر بحدوث شيءٍ آخر يؤذيهم. لم أكن لأهتم وقتها، فلقد كان جل اهتمامي ينحصر على تلك النقود التي

آخذها بالمجان، بدون خدمة أحدهم. فلقد اعتادت بعض صديقات والدتي إعطائي المال مقابل الذهاب لشراء بعض الأغراض لهن.

أتعلم أن الوقت الوحيد الذي كنت أقضيه مع أمي، هو الوقت الذي تجلس فيه للتحدث مع خالتي سكينة. غير ذلك فهي لا تمتلك الوقت لإضاعته معي، ولذلك اعتدت الجلوس بجانبهما كالبلهاء.. لا أفهم فيما يتحدثان، وعلى الرغم من ذلك كنت أشعر بالاستمتاع بالاستماع لهما؛ ربما لهذا افتقدت ذلك عندما أرسلت خارجاً.

هل اعتمدت حياتي على كونها لاشيء.. ربما ولكنها كانت ذات قيمة عندما كنت شاهد الإدانة في قضية أمي وخالتي. كانت خالتي سكينة أشد قسوة من أمي في أحياناً كثيرة، لا أدري لماذا؟ هل حسداً لأمي عليّ أم لأنها كانت تنتقم مني لما تفعله والدتي بها. فلقد كانت أمي تقسو عليها في الكثير من الأوقات، وتجبرها حتى على فعل ما لا ترغب به؛ ربما لأنها الوحيدة التي تعرف دهاليز خالتي سكينة، فالمال هو الصديق الأول الذي تعرفه.

أحداث كثيرة مرت في حياتي، أصف أكثرها بوابل الرصاص. فما أن سجنت والدتي حتى شعرت بأني يتيمة لا أهل لي، كنت أزورها من الحين للآخر بالسجن. كانت كثيراً ما تبرر لي ما فعلته بأنه الطريق الذي اضطرت لتمشيه لنعيش حياة كريمة، بعيداً عن عمل خالتي سكينة الأول. فلقد كانت كما أخبرتني (تمشي في الحرام) لم أعرف ما معنى أن يمشي الإنسان في الحرام، هل الحرام طريق يمشى فيه؟. أول مرة ألتقيتها فيها بعد انتقالها إلى السجن، بمثابة فرحة وخوف بالنسبة لي،فلقد كنت سعيدة لرؤيتها وخائفة من ازدياد كرهها لي بعد ما فعلته.

برغم أني لم أخبر الضابط بكل ما فعلته، فلقد حاولت إلصاق بعض التهم بخالتي سكينة، على أمل أن يتركوا أمي تعود، ولكن الحكم كان شديداً على كلاهما. تقدمت يومها بخطواتٍ خائفة، كانت أنفاسي تحاول الهروب مني، فما إن دخلت غرفة المأمور حيث تجلس أمي، حتى ركضت نحوها وعلى نحوٍ مفاجئ توقفت وتجمدت قدماي في مكانهما وأنا أنظر إليها بخوف. لم أستطع تحريكهما وقتها إلا عندما سمعت صوتها يناديني..

- بنتي.. بديعة.. تعالي.. هل تخافين مني؟.. لا تخافي يا بديعة.. لقد سامحتك..

ركضت نحوها أبكي وانغمست في أحضانها وأنا أردد ..

- سامحيني يا أمي..

انتظرت أمي حتى خرج الجميع، ثم أخذت باحتضاني وهي تؤكد لي خوفها عليّ من بعدها، وتتساءل في الوقت ذاته عما سيحدث لي، لأول مرة شعرت بخوف أمي عليّ، لأول مرة أشعر بدفء السعادة، لأول مرة تأتي هذه اللحظات في الوقت الخاطئ.. تأتي متأخرة. لماذا تأتينا المشاعر الصادقة في الوقت الخاطئ، في الوقت الذي سيرحلون به أو يموتون فيه؟. لم أعرف يوماً حنان الأم، وما كدت أتذوقة حتى فقدته.

* * *

obeikan.com

(٣)

داومت على زيارة أمي كلما سنحت الفرصة، لم أفكر يوماً في زيارة والدي، فلم يكن بالنسبة لي شيئاً غير كوني من صلبه. كان تعلقي الشديد بأمي، ربما نتيجة لإهمال أبي لي وابتعاده عن التقرب مني واحتضانه لي كما يفعل الآباء. في تلك الفترة كنت أتنقل من مكان لآخر حتى لا يتم إيذائي من قبل المجاميع الثائرة.

كنت أجلس وحيدة لا أحادث أحداً، أرى العاملات بالمكان يتهامسن حول كوني ابنة السفاحة ريا. كان افتقادي لأمي يزداد بزيادة شعوري بالوحدة، تمنيت لو يعود الوقت بي إلى الوراء، لكي أتراجع عن كل ما قلته. لتعود حياتي كم كانت وينتهي هذا الكابوس. الحياة مع قسوة أمي كانت أفضل بكثير من الحياة مع قسوة البشر، على الأقل هناك ما يربطني بأمي.. الدم.

تحدد موعد محاكمة عائلتي، لم يسمح لي بحضور المحاكمة، ولكني علمت بالحكم لاحقاً من إحدى العاملات اللاتي جاءت تشمت في موت أمي. نعم.. حكموا عليها بالإعدام. كان ذلك اليوم الأشد حلكة في حياتي، أخذت يومها أبكي وأصرخ طلباً لأمي. بينما تصرخ فيّ العاملة بأن أصمت، لم أكن أرغب وقتها في الصمت، فلقد كان بداخلي شعورٌ يؤلمني بشدة، فأنا قاتلة عائلتي، أنا من سلمتهم بيدي لحبل المشنقة. ذهبت لزيارة أمي

بعدها، وطمأنتني بأنها رفعت نقضاً للحكم، وعندما سألتها عن معنى ذلك.. أخبرتني بأنهم قد يقضون بوقف حكم الإعدام ويحكمون عليهم ببضع سنواتٍ يقضونها بالسجن. شعرت بالاطمئنان لوهلة، وصمتّ في أحضانها شاردة.

مات خيط الأمل الوحيد الذي كنت أمسك به، فلقد تم رفض النقض وتم تحديد تاريخ اليوم الذي ستعدم به عائلتي ١٩٢١/١٢/٢١م ذلك التاريخ المشئوم الذي سأتوج به يتيمة. لم أنس ذلك التاريخ طوال حياتي رغم أني حاولت تجاوز الماضي كثيراً وبكل الطرق، كي أستطيع إيجاد طريقي للخروج من حفرة الظلام الدامس. فالنظر للماضي كالنظر للخلف وأنت تقود سيارتك، يؤدي بك دائماً إلى الهاوية.

علمت بعد إعدام عائلتي برغبة أمي في لقائي، ومن منعهم لها من ذلك. حتى آخر أمنيات الموت لا توهب لنا حتى نموت كالعطشى لآخر قطرة من الحياة. لقد كانت كلمات أمي الأخيرة تشملني، فلقد استودعتني عند الله ليحفظني، كانت تعلم بأني بعدهم لن يبقى لي عائلة. لقد حكم عليّ بالبقاء في الملجأ كالأيتام.. ولكني الآن يتيمة أو هكذا أصبحت. لن أنسى أول يوم دخلت فيه الملجأ عندما كانت عاملة الملجأ نبوية تسحبني خلفها كالماشية في طريقنا إلى غرفتي. تلك الغرفة الممتلئة بالأسرة التي لا يفرق بينها المتر الواحد، ذات الحوائط المتشققة بلونها البالي الذي يثير الجزع والإحباط.

وقتها دفعتني نبوية إلى تلك الغرفة المكتظة بالفتيات مثلي من حيث اليتم، أخذت تعرفهم عليّ بطريقتها..

- ادخلي يا ابنة السفاحين.. هذا سريرك.. اجلسي هنا..

نظرت إليّ الفتيات بتعجب، وتقدمن يسألنني ببراءة..

- ماذا تعني كلمة سفاحين؟!!

جلست أضم ساقي إلى صدري، ودفنت رأسي بينهما لا أعرف هل خجلاً مما فعلت عائلتي أم لأني لم أكن لأقوى على إجابة السؤال، لحظاتٍ حتى سمعت إحداهن وهي أكبرنا سناً في ذلك الوقت، فلقد كانت زنوبة تبلغ السادسة عشرة من عمرها، يقولون أن والديها تركاها عند باب الملجأ لكونها فتاة سيئة، ويبدو أن لها تأثيراً مباشراً على الفتيات؛ فلقد كانت اليد اليمنى لنبوية التي يخافها الجميع ، كانت زنوبة تحاول دائماً إثبات معرفتها لكل شيء حتى تستحوذ على الانتباه، كانت قاسية الملامح.. قاسية القلب، تجبرنا على التنظيف وأحياناً على إعطائها طعامنا.

-سفاحين تعني قتلة.. ابنة من أنتِ يا بنت؟

نظرت إليها بصمتٍ بدون إجابة، وعدت لدفن رأسي مرة أخرى، كان ردي هذا جارحاً لكرامتها أمام الفتيات على ما يبدو، لذا أخذت تعنفني و تهزني، حتى أنها كادت تضربني لولا أن العاملة بالملجأ منعتها بعد أن سمعت أصوات الضجيج والصراخ..

- ماذا هناك يا زنوبة؟.. لا تزيدي المواضيع على الفتاة.. فهي ما زالت جديدة ولن تتحملك..

- لا يوجد شيء يا أبلة.. نسألها فقط أنتِ بنت مين؟.. فادعت أنها خرساء ولم ترد علينا..

- هذه ابنة ريا.. من منا لا يعرفها.. إن أمها قد قتلت نصف نساء الإسكندرية..

شعرت بالغضب لما قالته نبوية فاندفعت صارخة، أحاول ضربها..

- لا تقولي هذا الكلام عن أمي..

- إن لم يكن أنتِ من تسبب بسجنها وإعدامها، ماذا كنتِ لتفعلين؟.. أليس أنتِ من شهدتِ عليهم.. أم أنني أدعي كل هذا كذباً وافتراءً عليكِ..

نظرت إليها بحنق، وتكونت بداخلي بذور كره أخذت تنمو مع كثرة ما لاقيته منها من معاملة سيئة لم أنم تلك الليلة، كما لم تنم جميع الفتيات خوفاً من أن أقوم بقتلهن وهن نائمات، حتى زنوبة مدعية الشجاعة، كانت تنظر لي بعينيها نظرات لم أفهم ماهيتها، هل خوفاً كانت أم حذرا؟ حتى من يصفون أنفسهم بالشجاعة، ما شجاعتهم إلا لوح من الزجاج الشفاف الذي يعكس الجبن بداخلهم، هكذا هي زنوبة وهكذا هن غيرها ممن وضعن القسوة مقياساً للبقاء، معتقدات أن بسيطرتهن على الآخرين هن الأقوى، بينما لا يشعرن بأنهن لا يكملون في تلك الصورة إلا قطعهم المفقودة التي تفضح النقص الذي يعانون منه.

* * *

(٤)

لا تبقينا الحياة على نمطٍ واحد حتى في أشد الأيام حلكة، لم أتفنن في رسم حياتي بالأبيض و الأسود، ولكني خلقت هكذا عارية من الألوان، خلقت لا أدري لماذا كانت زنوبة تقسو عليّ أكثر من الفتيات، ولكني كنت أرى في عينيها خوفاً مني، تحاول إخفائه بكل ما تستطيع، لم تحاول أحداهن التقرب مني، فكنت أقضي يومي وحيدة بين العمل الشاق وبين البكاء، أفتقد أمي كثيراً، لطالما اعتقدت أنها أقسى امرأة بالعالم، حتى رأيت نبوية وعرفت ما معنى القسوة الحقيقية.

كانت الساعة السادسة صباحاً، عندما دفعتني نبوية من على سريري، حتى سقطت أرضاً..

- استيقظي يا "روح أمك"..

- ماذا هناك؟..

- هناك عمل.. استيقظي هيا ورتبي أسرة البنات واكنسي الغرفة وامسحيها جيداً..

-لكن دوري ليس اليوم..

-لا يوجد شيء اسمه دور.. ستفعلين ما أقوله لكِ وإلا ستتعرضين لفولت كهربا يعيد إليكِ عقلك.. أتفهمين؟..

ارتعدت خوفاً من أن تقوم بكهربتي مرة أخرى، فذلك كان عقاب من يزعجها أو يعصيها لذلك أذعنت بالموافقة، لن أنسى يوم أدعت زنوبة أني آذيتها، يومها أخذوني إلى غرفة مظلمة، وأجلسوني على كرسي حديدي مليء بالصدأ تفوح منه رائحة الظلم، ربطوا يدي وساقي وبعدها قاموا بوصل أسلاك الكهرباء العارية بالكرسي، وأخذوا بصعقي حتى غبت عن الوعي.

ما إن استيقظت حتى وجدت نفسي في غرفة صغيرة بنافذة أصغر، ملقاة على الأسمنت البارد، أخذت أصرخ طالبة منهم أن يخرجوني منها، فأنا فتاة تخاف الظلام؛ ذلك الظلام الذي عشت فيه قبل أن أولد و سأعيش فيه عندما أموت، أخذ صوتي يرتفع أكثر وأكثر، ولا أحد يجيب، فأخذت أضرب الباب بقدمي وأنا أطالبهم بإخراجي، ما هي إلا لحظات حتى حضرت نبوية ..

- ماذا تريدين يا ابنة السفاحين؟..

- أخرجيني من هنا يا أبلة أرجوكي.. فأنا أخاف الظلام..

- تخافين من الظلام.. إذاً أين كنتم تدفنون النساء؟.. أليس في الظلام أيضاً..

- أرجوكِ يا أبلة.. أنا خائفة..

- لن تخرجي من هنا إلا غداً صباحاً.. خذي هذا الطعام لتأكليه.. ولو أنك لا تستحقين لكن ماذا عساي أن أفعل لطيبة قلبي..

ما إن فتحت الباب لوضع الطعام حتى أمسكت بقدمها وأنا أتوسل لها أن تأخذني معها، ولكنها دفعتني بقدمها وأغلقت الباب، وقضيت تلك الليلة وحدي أصارع مخاوفي، وأنا أشعر بأن روحي تخرج من جسدي كخروج أنفاسي الباردة.

هل عانقت الموت يوماً؟ أنا عانقته تلك الليلة حتى ما عاد في مقدوري سماع قلبي ينبض أو أنفاسي تزفر، هكذا وجدوني في الصباح، أهدي الحياة قبلة الوداع. أخذتني نبوية إلى سريري ووضعت الغطاء فوقي حتى أدفأ خوفاً من أن يتهموها بالإهمال الذي تسبب في موتي، أمرت نبوية زنوبة بإحضار كوب من الشاي الساخن، أصبت ليلتها بالتهاب رئوي أقعدني في السرير أياماً و ليالي، كانت تلك أجمل أيام حياتي رغم أني أجزم بأني لم أشعر بشيء من شدة ارتفاع درجة حرارتي، بل كنت أهذي طالبةً أمي، تصيبنا الحمى بحالة من الهذيان الذي تبدأ عقولنا فيه بإفراغ محتوياتها، و كأننا تحت تأثير المخدر، أو ربما تصيبنا بالشجاعة لرفع الأغطية عن خبايانا الضالة، لتظهر عوالم النفس عارية من الكذب.

مرت ثلاثة أيام منذ مرضت ولم أكد أفيق من مرضي حتى وجدت نبوية تأمرني بأن أنظف و أرتب غرف الملجأ، كنت أتخبط الخطا من التعب ولكني كنت مضطرة، فلو رفضت لساقوني مرة أخرى إلى تلك الغرفة مظلمة الملامح، وبينما أنا منهمكة في التنظيف، سمعت صوتاً كصوت المقعد يتحرك تقدمت لرؤية من هناك وأنا أصيح مطالبةً أياه بالتعريف

عن نفسه، لم يكن هناك أحد، اعتقدت أنه الهواء، فربما كانت لدية القوة لزحزحة الكراسي كما يزحزح الستائر، عدت لترتيب الغرفة وأنا أكاد أجزم أني سمعت صوت خطوات أقدام، وكأن هناك من يراقبني، أخذت أنفض الوسائد وأعود لوضعها على السرير، وأنا في ترقب لظهور أحدهم.

وفجأة رأيتُ ظلاً يخطو بسرعة من جانب الباب، أسرعت للباب لعلي أكتشف شخصية صاحبة الظل، ولكني لم أجد أحدا، كدت أشعر بالخوف وأنا أعتقد أنه شبح، أكملت تنظيف الغرفة وتوجهت للغرفة التالية، أحاول أن أكمل عملي بسرعة لعلي أجد دقائق أخلو بها لنفسي بعيداً عن نبوية، ولكن ذلك الصوت ما زال يتردد في أذني بخفة، مما جعلني آخذ في الركض لغرفة نبوية، التي فزعت عند رؤيتي وأنا ألتقط أنفاسي وأحادثها بأنصاف الكلام..

- ماذا هناك يا فتاة؟ انطقي.. فهميني..

- عفريت (شبح) يا أبلة..

-بووووووس (صوت يصاحب حركة باليد اعتادت النساء فعلها عند سماع اسم شبح أو جن).. بسم الله الرحمن الرحيم.. ماذا؟!!.. أجننتي ..

- لا والله يا أبلة.. العفريت يراقبني كلما ذهبت إلى غرفة.. أجده خلفي..

- ستجدينها روح امرأة ممن قتلتهم والدتك.. اذهبي بعيداً هيا وأكملي تنظيف.. أفزعتيني بدون فائدة.. لا تعاودي المجيء وإخباري بأي شيءٍ آخر.. دعي العفريت يفعل بكِ ما فعلته أمك بالآخرين..

خرجت من غرفة نبوية، وقد اشتد خوفي أكثر من أن يكون كلامها صحيحاً، وتكون تلك إحدى أرواح الضحايا جاءت للانتقام مني، يقولون إن أرواح الموتى لا ترحل إلا بعد الانتهاء من مهمتها، التي لم تستطع إكمالها في الحياة، فيا ترى هل أنا تلك المهمة؟. الحياة مليئة بالأرواح، فلا نرى أرواح الموتى فقط، بل أرواح الأحياء التي تهيم بدون هدف أو تلك التي لا تعرف طريقها إلى الحياة نفسها.

دخلت الغرفة وأنا أتلفت يميناً ويساراً في خوف، مضت دقائق هادئة أكسبتني القليل من الهدوء والتماسك، قبل أن أسمع تلك الخطوات مرة أخرى..

- من؟!!.. من هناك؟!! ؟؟

لم أجد إجابة توقف قلبي الخائف عن خفقانه الشديد، أخذت أنظر لباب الغرفة مرة أخرى في ترقب شديد للخطوة القادمة، وبالفعل ما كدت أغلق عيني حتى رأيت ملابس بيضاء تركض من اليمين إلى اليسار، أخذت أصرخ وأنا أتوسل لتلك الروح أن تتركني و شأني بلا أذية، فأنا لم أقترف ذنبا.

اقتربت الخطى نحوي وأنا أكاد لا أقدر على رفع رأسي، حتى شعرت بلمساتٍ خفيفة تهز كتفي، تراجعت للخلف في ذعر وقد بدا أنه لا بد من رؤية ذلك الشبح المخيف، استرقت النظر بسرعة نحوه، لم يكن شبحاً

بل رباب الفتاة العجماء التي تكاد تكون كالشبح، فلا أحد يتحدث معها ولا تتحدث هي بالمثل مع أحد، سمعت أنها فقدت قدرتها على الحديث بعد أن قتل والدها والدتها أمام عينيها، يبدو أننا جميعاً نشترك في الأصول الإجرامية التي لا نملك منها حيلة إلا أننا أبناء في الزمن الخاطئ.

أشارت لي تسألني عما أفعله هنا؟ ولماذا علامات الخوف التي امتصت الدماء من وجهي، أجبتها أني اعتقدت أنها شبحٌ جاء ليقتلني، أخذت تضحك عليّ، وتشير لي بأني جبانة، سألتها عن سر تتبعها لي ولماذا ليست بالخارج مع الباقين. أشارت لي بأنها تبحث عن صديقها الصغير، نظرت لها بتعجب فلم يكن بالملجأ أي أطفال ذي سن صغير، سألتها عن ماهية صديقها الصغير، فأخبرتني أنه الفأر سوسو، ما إن عرفت بموضوع الفأر حتى قفزت كالصاروخ إلى السرير وأنا أصرخ فأر.. فأر. أزعجها ما فعلت وأخذت تطلب مني أن أصمت حتى لا تسمعنا نبوية وتعرف بأمره فتقتله، كانت تمتلكني لحظتها نوع من الرهبة، فأنا بطبيعة الحال جبانة وأخاف الفئران كثيراً، لكن خوفي من نبوية وغبائها جعلني أصمت.

ولكن يبدو أن سماعات أذن نبوية أرشدتها إلينا، حيث جاءت وعيناها مليئة بالغضب تسألنا عن سر صراخنا، نظرت لي رباب وهي تستجديني ألا أفضح أمرها، فأعدت عليها موضوع الشبح الذي لم تصدقه منذ البداية، نظرت لي بغضب واقتربت مني تجذبني من أذني، وهي تتوعد لي بالويل ..

- تعالي لأريكي العفاريت الحقيقية.. ستنامين الليلة في الغرفة الصغيرة التي بالأسفل..

ياللهول، الغرفة الصغيرة لم يكن هناك أسوأ منها، فلقد سمعت أن بها أشباحاً حقيقية، وكثيراً من الفتيات ممن يحتجزن بها لا يعودن إلى طبيعتهن مرة أخرى. أخذت أطلب منها أن ترحمني، وأقسم لها بأني لن

أتحدث عن الأشباح مرة أخرى. ولكنها نبوية وما أدراك ما نبوية، ذات القلب المتحجر إن كان لها قلب، لم تعرني انتباهاً وهي تجذبني وأنا أتعثر خلفها، نظرت لرباب نظرة حقد وكأني أحملها مسئولية ما حدث، فلولا فأرها الصغير لما كنت سأعاقب، المسكينة اختبات خلف الباب وهي تشعر بالخوف، منظرها جعلني أشعر بالبؤس لحالها وحالي.

وصلنا للغرفة حيث الظلام، فتحت نبوية الباب ودفعتني للداخل، لقد كانت ذات الغرفة التي قضيت بها تلك الليلة المشئومة، لماذا لا أتعلم من أخطائي.. هكذا همست لنفسي بينما نبوية تغلق الباب وهي تصرخ فيّ.

- وانظري من سينجدك هذه المرة.. والله لو متّي لن أفتح لكِ الباب إلا بمزاجي..

- على راحتك..

هكذا انفلت لساني دون أن أعلم..

- على راحتي .. حسناً يا ابنة ريا .. سنرى ..

لم أعلم لماذا قلت تلك الكلمة، ربما لأني قد اعتدت على تلك الغرفة المقرفة التي بدت أفضل من معاشرة بشر ليسوا ببشر.

ليست الحياة من تمنحنا العطف، فالقلوب الكبيرة خلقت لتعطي بدون مقابل، ولكن هناك من يكون نصيبه في الحياة أن لا يعرف يوماً معنى العطف أو أن يتذوق طعمه، الحاجة للحب، كالحاجة للتنفس بدونه لا نحيا.

* * *

obeikan.com

(٥)

اقترب الليل على المجيء، وأنا أنظر للضوء يبدأ في الاختفاء، حتى بعض الضوء كان ليفيد قليلاً، وربما لو بعض الطعام أيضاً، فلم تمنحني نبوية بسبب لساني الطويل أي طعام، كلما تذكرت ما قلت أتعجب من تلك الشجاعة التي أصابتني، والتي ستتسبب الآن في موتي، وقع قدمات خفيفة وصوت صرير خفيف يقترب، هل يمكن أن تكون الغرفة مسكونة بصدق.. هكذا همست لنفسي.

بصوتٍ يملؤه التردد قليلاً ..

- من هناك؟ .. زنوبة .. نبوية ..

لم تكن هناك إجابه ترضي قد أنتظرها غير بضع دقات على باب الغرفة، زادت من ارتباكي وخوفي، صمت وانطويت على نفسي، فلم أكن أرغب بأن أعيد الكره، يكفيني ما حدث وما سيحدث، كدت أبكي وأنا أشعر بالوحدة، حتى سمعت صوت خبطات صغيرة، وأصابع تمتد من شق الباب المكسور ببعض الخبز، إنها رباب أتتني ببعض طعامها، اقتربت من الباب وجذبت الطعام منها بقوة وأخذت ألتهمه بنهم، ما إن انتهيت حتى خبطت خبطة بسيطة على الباب وأنا أقول لها..

- شكراً..

- العفو..

هكذا سمعت صوتاً خافتا، فأسرعت إلى جانب الباب أسألها: رباب.. "أنتِ بتعرفي تتكلمي؟"

دقائق من الصمت مرت، حتى أدخلت رأس الفأر من شق الباب، فما إن رأيته حتى صرخت وعدت للخلف..

- لا تخافي .. هذا سوسو الذي حدثتك عنه..

- حسناً ولكن أبعديه.. فأنا أكره الفئران..

- حسناً.. تعالى يا سوسو.. لأن بديعة تخاف..

- أنتِ إذاً تستطيعين الكلام.. إذاً لماذا تدعين الخرس؟..

- لأني لا أحب التحدث مع أي حد.. أتحدث مع من؟ جميعهم متشابهون.. بلا قلوب..

- لماذا أنا إذاً؟

- لأن لديكِ قلب يا بديعة .. وطيبة أيضاً ..

صمت قليلاً، وأنا أشعر بالقليل من السعادة والاطمئنان، ثم أكملت معها بعضاً من الحديث، مضى الوقت سريعاً حتى أنني لم أشعر بسوء الحال الذي أنا عليه. لتتركني بعدها خوفاً من اكتشاف نبوية لاختفائها، فطبيعي أن زنوبة سوف تخبرها باختفائها، أسندت ظهري للجدار البارد الذي ربما لم يكن بارداً كقلوب بعضهم، كان الظلام يعم المكان وبالكاد

أرى، فلم يكن ضوء القمر بذات السطوع الذي قد يهديني بعضاً من ضوئه، كان جسدي وقتها يكاد ينهار من التعب، ولم أشعر بنفسي ليلتها إلا وأنا نائمة على بلاط الغرفة الأسمنتي، التحفت أحلامي البسيطة بالحياة، حاولت تخيل أمي بجانبي تحيطني بذراعيها، لعل الأحلام تعطيني ما لم تستطع في حياتها أعطائي.

تعوضنا الأحلام عما فقدناه في واقعنا، فنجدنا نهرب إليها، بينما هي تفتح لنا ذراعيها كالأم الحنون، تمنحنا معها القليل من الأمل، في أن نرى غداً أفضل بذات الشكل والرسم الذي تمنيناه، رغم أن بعض الأحلام لا تختلف عن الواقع في مدى بشاعتها، حين تتحول إلى كوابيس.

استيقظت فجأة وكأن عقرباً لدغني، كان مشهد موت أمي يطاردني ليلتها بشكلٍ أفزعني، كلما حاولت أن أغفو حتى أتذكرها، وأشعر ببعض تأنيب الضمير، فلماذا لا أكمم فمي حين يستجمع شجاعته، ليوقعني في كل تلك المشكلات التي ما كانت لتخلق بدونه.. هل عليّ أن أمثل الخرس لكي أستطيع العيش في عالم المتكلمين، أم الحديث في عالمٍ لا يسمعني فيه أحد .. لم أستطع النوم ليلتها واكتفيت في قضاء الليل في التفكير، وأنا لا أعرف حتى في ماذا أفكر؟ ربما أخذت أفكر في كابوسي الزائر.

أضاءت الشمس بنورها الأرض، حتى غرفتي الصغيرة دخل بصيص النور إليها في خجل مما ستراه.. وبدخولها جاءت زنوبة هذه المرة ومعها المفتاح لفتح الباب لي ..

- تفضلي يا هانم .. أمامك الكثير من العمل .. الصحون بالمطبخ تحتاج لمن يغسلها..

نظرت إليها بغضب، وبصوتٍ يبدو كجذ الأسنان ..

- لكني لم آكل منذ الأمس.. لن أستطيع العمل بدون طعام..

- اذهبي وابحثي عن أي طعامٍ بالمطبخ (لتطفحيه)... ربما تجدين بقايا طعامٍ من الفطور..

تقدمتنى زنوبة وهي تتمايل في تقصعات لم تبد لي أنثوية كما تعتقد هي، فلقد بدت لي كعرجاء السوق تمشي على قدمٍ واحدة.. نظرت زنوبة للخلف فجأة، لتراني أحدق في مشيتها..

- ما هذا يا فتاة؟.. عيناكي هذه كرصاصة.. إلى ماذا تنظرين ؟..

- لا شيء.. إن طريقة مشيتك ثير إعجابي.. علميني كيف أمشي مثلها..

- أعلمك.. هه.. هذا شيءٌ رباني.. لا يعرفونه من هم مثلك ..

عادت لإكمال طريقها أمامي، وأنا لدي رغبة في البصق عليها.. ولكني كنت قد اكتفيت من تلك الغرفة الحقيرة، فلم يعد لي القدرة على قضاء ولو ساعةٍ أخرى بها.. وصلنا إلى المطبخ، والذي كان عبارة عن مكان أشبه بغرفة القمامة. الصحون المتسخة في كل مكان، والأرض يعلوها بقايا قشر البطاطس من غداء الأمس، والفرن يكاد لا يرى من شدة سواده.. التفتت إليّ بدلالها الماسخ وأشارت لي بأن أبدأ العمل، نظرت حولي وأنا لا أعرف ما عليّ فعله، فالمكان يحتاج لعمل كثير وأنا ليس لدي القدرة على فعل الكثير.

نظرت إليها أستعطفها ..

- اسمعي؟!!.. هل يمكنك إحضار من يساعدني؟.. لن أستطيع التنظيف وحدي..

- أوامر نبوية أن تنظفي كل هذا لوحدك.. قالت تريد من يساعدها.. هيا اذهبي للتنظيف وإلا أعدتك لتلك الغرفة..

بدت تهديدات زنوبة واضحة وصريحة، ورغم أن النزول للغرفة بدا أفضل الاقتراحات، إلا أنني تذكرت الخوف والوحدة التي أشعر بها هناك؛ لذا فضلت أن أقوم بالتنظيف بينما زنوبة تراقبني عن كثف، معطيةً لي الأوامر وكأني عبدتها. نظرت إلى نبوية وأنا أقوم بفرك الأرض، بينما هي تخرج لبانتها التي أخذ تمضغها وتسحب منها خيوطاً لتعيدها إلى فمها من جديد.. ما الذي يميز زنوبة عنا؟، فلم تكن نبوية ذات جمالٍ أو مال، فوالداها تخليا عنها كما تخلت عنا الحياة.. ولكنها ربما استطاعت بدمائتها تلك أن تصل إلى أذن نبوية، التي جعلتها يدها اليمنى كما تسميها.

القبح ليس بقبح المنظر، فالقبح الحقيقي يقبع في القلوب.. فكم من قبيحٍ امتلك قلباً ينبع بالجمال، وكم من جميلٍ لا يعرف قلبه إلا معنى القبح المتجسد في الحقد والحسد، أجسادنا ما هي إلا أوعية لأفكارنا ومشاعرنا التي ننضح بها أمام الآخرين، وفي الغالب القرار يعود لنا في إظهار ما نريد.

مرت ساعات من العمل حتى أتى موعد الغداء، الذي قامت بتحضيره إحدى عاملات الملجأ.. كل ذلك الوقت وأنا بدون طعامٍ أعمل، حتى أني كدت أسقط مغشياً عليّ من شدة الجوع.. حتى أني حين رأيت طعام الغداء أمامي لم أستطع فعل شيء آخر غير التهام الطعام، كما قالوا لي

"بفجع". أكملت طعامي لأجد رباب تناديني وتشير لي لأتبعها، كنت أشعر بالتعب الشديد ولكن لم أستطع إلا مرافقتها، فعلى ما يبدو نحن على طريق صداقة جديدة.

خرجنا إلى ما نسميه حديقة الملجأ، التي تحمل بين كنفاتها بعض الأشجار الميتة، والأتربة والحصى الذي لا يساعد على اللعب, فوجئت بها تمسك يدي وتجذبني نحو إحدى الأشجار، حيث جلست وطلبت مني مشاركتها.

- آه.. كم أحتاج إلى أن أرتاح قليلاً ..

- هل أريك شيئاً يا بديعة.. ولكن هذا سيكون سراً بيني وبينك..

- حسناً يا رباب .. أريني ..

أدخلت يدها الصغيرة إلى شق صغيرة بالشجرة، وأخرجت منه سلسلة بدت ذهبية وبها قلب صغير، اقتربت مني قليلاً وهي تحاول فتح القلب لتريني ما به ..

- انظري يا بديعة .. كم كانت أمي جميلة .. رحمها الله ..

- لماذا قتلها والدك؟

- كان أبي رجل كأس وكانت أمي كثيراً ضده .. كان كل يوم يضربها وهي تسكت لأجلي.. ذات يوم سمعت صوته وهو يصيح بها ويقول لها أنه حر ومن حقه يشرب ويلعب قمار كما يريد.. وهي كانت تجيبه بأن ثروتنا ستضيع بسبب أفعاله..

قاطعتها متعجبة ..

- ثروة ..

- نعم .. نحن أغنياء جداً.. يومها دفع والدي أمي، فسقطت على زاوية الطاولة وخبطت رأسها، اعتقدت أنها تمثل كي تمنعه من الخروج .. فتركها وذهب، نزلت أنا سريعاً لأجد رأسي أمي ينزف دماً.. هل تعلمين لقد بكيت يومها كثيراً.. إلى أن جاءت الدادة وطلبت الدكتور، الذي أخبرنا بموتها.. بعد ذلك تم القبض على أبي الذي زج بالسجن حتى حكم عليه بالإعدام.. في ذلك الوقت استغل أعمامي الموضوع وتبرءوا مني ورموني هنا بهذا الملجأ اللعين، مدعين وفاتي ليضعوا أيديهم على الثروة..

- ولكن أين أهل والدتك؟ .. أكانت يتيمة..

- لم يكن هناك غير جدي الذي مات بحسرته على موت أمي.. ومنذ ذلك اليوم كما ترين.. أدعي الخرس كي لا يؤذيني أحد..

جذبت منها السلسلة وأخذت أمعن النظر بملامح والدتها ذي البشرة البيضاء والشعر المفحم بالسواد.. بدت عليها ملامح مريحة لم أرها يوماً على وجه أمي، ملامح تمنيت معها أن تكون هذه أمي.

- والدتك جميلة جداً.. تبدو طيبة ..

- أمي كانت طيبه وتحبني كثيراً.. وأنتِ يا بديعة كيف كانت والدتك؟..

صمت لبرهة، لم أعلم وقتها ما عليّ قوله.. فهل كنت لأخبرها بالحقيقة المفزعة بأن أمي بلا ملامح، تكاد ملامحها مختفية خلف تجاعيد الجليد المحيطة بعيناها والتي تغطي معظم وجهها.. أم أخبرها عن طريقه معاملتها لي التي لم تتعد كوني ابنتها على شهادة الميلاد، هل كنت لأخبرها عن قلب أمي الذي لا يبدو كباقي القلوب، فقلب أمي ليس من زجاج بل من حديد.

دققت النظر في صورة والدتها، وابتسمت : أمي.. كانت كوالدتك.. جميلة وحنونة، هل تعلمين أنها كانت تحب اختيار ملابسي التي أرتديها.. كما أنها لم تسمح لأحد أن يغضبني.. كنت أبيت كل ليلة في أحضانها الدافئة..

سقطت بعض دمعاتٍ خانت ثباتي، فاضحة مشاعر الكبت التي أحملها، فاضحة أمنياتي وكذباتي.. حمدت الله أن رباب لم تكن بتلك الفطنة التي تعرف بها الكذب من الصدق، فلقد كان صفاؤها البلوري أقرب إلى الخيال المعدوم.. أعدت إليها صورة والدتها، التي أعادتها مرة أخرى إلى ذات جذع الشجرة التي اعتادت تخبئة أشيائها فيه، نظرت إليّ مبتسمة وهي تريني فأرها سوسو..

- انظري كم هو لطيف بشاربيه الصغيرين.. سوسو هو صديقي الوحيد هنا.. هو الوحيد الذي يفهمني عندما أحدثه عن أمي وعندما أخبره أيضاً بما تفعله نبوية بالبنات وبي من ضرب وإهانة.. هل تعلمين لو أن أمي هنا ربما كنت طلبت منها الاحتفاظ به مدى الحياة..

- آهٍ لو علمت نبوية به.. لقتلته أمامك بدون شك.. فتلك المرأة بلا قلب..

فزعت من حديثي عن موت سوسو، وأخذت تحتضنه بحنان ..

- لا.. إلا سوسو.. إن مات هذا الفأر فلن يعود لي أحد في هذه الحياة.. فأمي قد ذهبت وتركتني وحيدة في هذا العالم.. لو حدث شيء لفأري سأموت أنا أيضاً حزناً عليه.. لا يعد بمقدوري العيش بهذا العالم وحيدة.. أتفهميني يا بديعة..

هززت رأسي بالإيجاب، بينما تابعت هي حديثها ..

- سأعتبرك صديقتي يا بديعة.. فأنت الوحيدة التي تعرفين بأمر استطاعتي الكلام وأمر سوسو.. يمكنك أيضاً التحدث مع سوسو عندما تشعرين بالتعب..

أشرت إليها بعدم اهتمام، وطلبت منها أن نغادر المكان فإن رأتنا زنوبة فسوف تشك في جلوسنا معاً، خبأت فأرها في جيب ملابسها، بعد أن طلبت منه أن يصمت. تعجبت من رباب كثيراً فهي تعامل فأرها على أنه إنسان يفهمها وتفهمه، وتخاف عليه كثيراً كخوف الأم على وليدها.. صحيح إن الأمومة شعورٌ نخلق به، ولا نكتسبه، على غرار كثير من الأشخاص الذين يقتلونه بقسوتهم، اتجهنا نحو الملجأ، وما إن اقتربنا حتى طلبت منها الابتعاد قليلاً حتى لا ترانا زنوبة أو نبوية معاً، فجل همهما هو إشعارنا بالعذاب، وبالفعل وجدت زنوبة تنتظرني بالداخل وهي تضع يدها على خصرها وبكل وقاحة..

- أين كنتِ أيتها الحمقاء؟

- كنت في الحديقة أجلس قليلاً..

- اذهبي لإكمال عملك بالمطبخ ..

- ولكني أكملت عملي فعلاً ..

- ومن سيغسل صحون الغداء .. هيا فالدادة تريد تحضير العشاء .. أسرعي..

اتجهت على مضض إلى المطبخ، وأنا ألعن زنوبة ونبوية والمطبخ، فلم أعد أطيق حياةً كهذه، صحيح أن اليتم ليس يتم الأب والأم، بل يتم المشاعر التي تصيب الآخرين فيصبحون غير قادرين على العطاء.. بدأت في غسيل الصحون، وأنا أتململ من كل شيء، لا أدري لماذا تمنيت في هذه اللحظة أن تكون رباب بجانبي لتسليني بالحديث، كما أحببت كلمتها باعتباري صديقة، فلم أعرف يوماً ما معنى أن يكون لك صديق، فأطفال حارتي لم يرغبوا يوماً في صداقتي أو حتى اللعب معي، لم أكن أعلم سبب معاملتهم لي بهذا الشكل، كنت أبكي وأنا أراهم يلعبون بينما هم يخرجون ألسنتهم لي.

أكملت غسيل الصحون وذهبت لأخبر زنوبة بذلك، والتي أعلمت بدورها الدادة بأني قد انتهيت لتقوم بإعداد العشاء، وأي عشاء ذلك الذي أعدته، مائدة من الديوك الرومي والدجاج.. هكذا تمنيت، فلقد اقتصرت المائدة على أطباق الفول والخبز اليابس.. بينما أنا أتناول الطعام تذكرت سوسو فأر رباب، فكسرت قطعة من خبزي وأخفيتها في

جيب ثوبي لأعطيه أياها، ما إن انتهينا من طعام العشاء، حتى بدأت نبوية بالصراخ فينا لنذهب إلى النوم، حملت جسدي المتعب وتقدمت بخطواتٍ ثقيلة نحو السرير، أرتمي عليه وكأنني أحتضنه في شوق، فما إن وضعت رأسي على وسادته حتى استغرقت في النوم، الذي بدا لذيذاً وقتها.

* * *

obeikan.com

obeikan.com

(٦)

مرت سنتين ونصف على وجودي بالملجأ، اعتدت فيها على قساوة الحياة أكثر، وازدادت علاقتي برباب وفأرها سوسو، في تلك الفترة امتلكت القليل من الجرأة التي لم أظهرها أمام أحد، كنت أكتفي بالتحدث إلى العدم متخيلة أن من أحدثها هي نبوية أو زنوبة، التي كنت أتمنى أن تأتي مصيبة لأخذهما سريعاً، ولكن المصائب لا تصيب إلا الطيبين أمثالي الذين يصابون بمصيبتين كنبوية وزنوبة، رغم أني حاولت التقرب من زنوبة قليلاً، ولكنها كانت أشد مكراً لتفهم بأني أحاول ادعاء صداقتها لكي تتوقف عن إيذائي، فكانت تستمد قوتها من خوفي، فتزيد في إهانتي.

كان شبح أهلي السفاحين كما كانوا يطلقون عليهم، هو المسيطر على معاملتهم لي، فالجميع يريدني أن أدفع ثمن جرائمهم؛ وكأني أنا سبب تلك الجرائم، فكانوا يكثرون من الدعاء عليّ أن ألقى مصير والديّ، لم أعرف يوماً معنى أن تكون إنساناً تعامل كأنسان، وليس كحيوان ليس له قيمة، ولا يستحق حتى العطف.. كلما كنت أتشاجر مع إحداهن، كن يصرخن بي أن آتي لقتلهن كأمي السفاحة.. كم كنت أتمنى لو أني قتلتهن فعلاً، ولكني قطعت على نفسي عهداً ألا أعيش كعائلتي.. مجرمة، يكفيني ما أراه في عيون الآخرين برغم عدم فعلي لشيء، فكيف إن كنت أنا من فعل كل هذا؟.

في ذات ليلة جاءت إليّ أحداهن تضحك، وتنظر إليّ بنظراتٍ تحمل السخرية، وأخذت تشير إليّ باستهزاء: هل هي هذه؟ التي تخفن منها؟ .. أنتِ ابنة السفاحين.. لا يبدو عليكِ هذا..

أخذت تلعب بشعري، وهي تضحك ساخرة..

- حتى أنها ليست جميلة.. انظروا إلى شعرها..

لم أتمالك نفسي يومها، وانقضضت عليها أضربها على وجهها، حتى جاءت زنوبة وفرقتنا، وأخذت تسأل الفتيات عن سبب الشجار ..

- ماذا حدث؟ .. من البادئ بالمشكلة؟

أشار الجميع إلي على أني من بدأ المشكلة، حتى تقدمت رباب و أشارت إلى الفتاة الأخرى..

أخذت أقسم لها بأني لم أفعل شيئا..

- هي التي بدأت.. فلقد أخذت تضحك عليّ و تدعوني بابنة السفاحين و....

قاطعتني زنوبة ساخرة هي الأخرى ..

- ومن قال لكِ أنك بنت بشوات .. أنتِ ابنة السفاحين.. هل نسيتِ نفسك يا بديعة أم ماذا؟..

ثم أشارت إلى الفتيات للذهاب للنوم، بينما تبعتها الفتاة الأخرى، وهي تنظر إليّ بحاجبٍ مرفوع وكأنها تسخر مني للمرة الثانية، شعرت

بالحقد الشديد عليها، حتى أني فكرت في الانتقام، ولكني لم أرغب يوماً أن أكون مثلهن، اقتربت مني رباب وهي حزينة لما حدث لي ..

- لا تحزني يا بديعة.. إنها فتاة خرقاء.. تابعه لزنوبة، أرادت فقط أن تفرض سيطرتها لإرضاء زنوبة..

- لماذا يحدث كل هذا لي؟.. ليتني أجد طريقاً للهروب من هنا..

- أنسيتِ كم حاولتِ الهروب.. كل محاولاتك باءت بالفشل.. وإن هربتِ إلى من ستتركينني، أنتِ الآن صديقتي الوحيدة..

- ومن أخبرك بأني سأتركك.. كنت سأعود لآخذك معي أنتِ وسوسو..

- لا أعتقد أنكِ ستتذكريني إن وجدتِ طريقاً للخروج من هنا.. هذه هي حال الجميع ممن يخرجون هنا .. لا يعودون..

- لست كالباقين يا رباب.. لا تخافي.. سيأتي اليوم الذي نخرج منه من هنا أنا وأنتِ.. وسأذكرك بهذا..

- يا رب يا بديعه.. فلم أعد أطيق الحياة هنا..

كلانا لم نعرف للحياة طعماً هنا، ولكننا حاولنا جاهدين التكيف مع الواقع الذي بدا أشد ألماً من الذي عشناه.. فما إن فقدت الأمل في أن أجد من يتبناني، بدأت بالتفكير في الهرب، فالجميع يأتي وما إن يعرف أني بنت ريا، حتى يبتعد عني ويغير رأيه ، ليتبنى فتاة أخرى، على الأقل رُفِضْتُ لأني بنت ريا، فماذا عن زنوبة التي كانت تشتد قسوة عندما يتم

رفض تبنيها، لأنها قبيحة، في أحد الأيام وافقت سيدة على تبنيها، وجاءتنا فرحة والسعادة تكاد تقفز في عينيها تخبرنا..

- أخيراً.. لن أرى أياً من وجوهكن القبيحة.. أخيراً سيكون لي منزل وعائلة ولن أعود إلى هنا حتى لزيارتكن..

باركت لها جميع الفتيات، فلقد كانت سعادتنا بذهابها أكثر من سعادتنا بتبنيها، فلم نكن لنفتقدها، بل كنا سنرتاح من عذابها وتسلطها الدائم، ولكن كما يقولون "يا فرحة ما تمت"، فلم يمض الأسبوع حتى عادت إلينا لتخبرنا بأن منزل السيدة لم يعجبها، ولكني الوحيدة التي تعرف الحقيقة، فلقد سمعتها تتحدث مع نبوية في هذا الموضوع عندما عادت..

- لا أصدق.. هل فعلت بكِ هذا..

- وأكثر يا أبلة نبوية.. لقد كانت تجعلني أغسل الصحون وأمسح الأرض، وأقدم الشاي والقهوة لضيوفها.. لقد تمت إهانتي يا أبلة نبوية..

- إذاً أخذتكِ لتعملي خادمة.. وأنا الذي اعتقدت أنها ستتبناكِ كابنتها..

- أي ابنة؟.. لقد كانت تعاملني بقسوة.. جعلتني أنام بغرفة الخدم.. لقد هربت منها أرجوكِ لا تعيديني إلى هناك..

هذه كانت كلماتها وهي تبكي وتشتكي حالها لنبوية، التي أخذت تقسم على جعل المرأة تدفع الثمن، وكأن بيدها حيلة.. طبعاً لم تظهر زنوبة أياً مما

حدث لها، وفضلت التكابر على ما حدث لها، لأول مرة أشعر فيها بالشماته لأحد، كانت زنوبة، التي أحسست أن القدر انتقم لنا منها بما حدث لها، لم أخبر أحد بما سمعت، واكتفيت برمقها بنظراتٍ جعلتها تفهم أني أعلم بكل شيء، وربما هذا ما زاد من غضبها نحوي.

مرت الأيام والأوضاع متوترة مع الجميع، إلا أنا فلقد كنت أنزوي في إحدى زوايا النافذة الحديدية، أتأمل الحياة من الخارج، في محاولة لمواساة نفسي، أعطيها الأمل بأن قريباً سأكون بالخارج بعيداً عن هذه الهرتلات، جاءتني يوماً رباب تركض وأنا أجلس على نافذتي، تكاد أنفاسها تنقطع من شدة الركض والخوف التي كانت عليهما.

- ماذا هناك يا رباب؟ ماذا حدث؟

- لقد اختفى سوسو ولم أجده ثم ...

- لا تقلقي ستجدينه هنا أو هناك .. تعلمين أنه يذهب للخارج قليلاً ويعود..

- سوسو .. لقد وجدته ..

- إذاً لماذا يبدو عليكِ انقطاع الأكسجين.. تنفسي ثم أخبريني بما تريدين..

- لا فالوقت لا يكفي.. وأنا أبحث عن سوسو في مكتب نبوية.. حضرت فجأة فاختبأت في الخزانة خوفاً من أن تراني فتضربني على وجودي هناك.. وبينما أنا في الخزانة سمعت صوتها وزنوبة يتفقان عليكِ..

- يتفقان عليّ .. كيف؟!! لم أفهم..

- لم يوضحا كثيراً .. ولكنها أخبرتها بأن الليلة هي الليلة المنتظرة.. والتي ستكون الأخيرة لكِ.. لم أفهم عم يتحدثان.. ولكني فضلت أن أخبرك لتأخذي حذرك..

أثارت كلماتها بداخلي بعض الخوف، ولكني شعرت فجأة بعدم اهتمام..

- ماذا سيفعلون بي أكثر مما يفعلون؟..

- خذي حذرك منهم يا بديعة .. فأنتِ تعلمين بنبوية وزنوبة وكيف هن؟

- لا تخافي .. سأحاول أن أكون متيقظة..

توقفنا عن الحديث عن الموضوع، وبدأنا بالحديث عن سوسو الذي بدا خائفاً هو الآخر، حتى الحيوانات تشعر بأصحابها.. ليس بالحديث فقط تشعر الآخرين باهتمامك، فأفعالنا تسبق أحياناً الكلمات، لتكون أجود منها.

لم أضع لكلام رباب حساباً، فلقد بلغت من اليأس ما يجعلني لا أتوقع الكثير من أحد. وفي الغالب لا أتوقع من زنوبة أو حتى نبوية غير الشر، فقلباهما لا يعرفان معنى الخير أو الطريق إليه. في تلك الليلة تفعلت نبوية مشكلة معي وأمرت زنوبة بحبسي في الغرفة الصغيرة، لم أهتم فلم أعد أخاف منها كالسابق، بل إنني قد أعتدت عليها، نزلت بي زنوبة إلى

الغرفة وقامت بدفعي كالعادة إلى الداخل، ولكن هذه المرة تركت لي مصباح الزجاج وبه شعلة صغيرة لينير لي المكان، فلم يكن مملوء بالجاز عن فاه، تعجبت من فعلها هذا، فلم تكن بتلك الطيبة التي قد تعطيك مصباحاً خوفاً عليك من الظلام، ولا المرة الأولى التي تتركني بها هنا.

* * *

obeikan.com

obeikan.com

(٧)

قليلٌ من الضوء في عتمة الظلام قد يكون كافياً لجعلك تتنفس، فلا تقاس الحياة بجدرانها التي نحيا بينها، بل بمدى الأمل الذي تحمله للخروج من بين تلك الجدران، نمت على ظهري تلك الليلة أتأمل سقف الغرفة لأول مرة، فلقد عكس المصباح القليل من الضوء الذي كشف عن خباياها، سقفٌ أسمنتي رسم عليه تجاعيد متشققه، تدل على قدمه وعلى عدم اهتمام أحدٍ به، منظر الغرفة الحزين بدا لي كقلوبنا التي نحملها بين أضلعنا، تلك القلوب التي لا تجد الفرحة لها طريقاً، يبدو أنها تجعدت أيضاً من الحزن، كما أصابها التجوف بألوانه القاتمة. فالحزن يستعمر القلوب بقوته، حتى يأتي الفرح ليستعيد مكانه الطبيعي في قلوب المساكين.

مرت ساعات وأنا أحدق بالسقف، حتى سمعت صوت وقع أقدام، لوهلة ظننتها رباب ..

- رباب .. هل أتيتي؟.. عودي حتى لا تعرف زنوبة أنكِ هنا وتعاقبك..

لكنها لم تجيبني كما توقعت، فاعتقدت أني أتوهم ما سمعت شوقاً لأن يشاركني الوحدة أحدهم، وما هي إلا دقائق حتى بدأت بشم رائحة تبدو كرائحة الدخان، يبدو أن هناك شيئاً يشتعل، قفزت قليلاً إلى نافذة الباب الصغيرة، أتأمل ما يحدث بالخارج، فوجدت ناراً مشتعلة بجانب

الباب، تزداد رويداً رويداً في محاولة لالتهام الباب والدخول للغرفة، شعرت بالخوف الشديد وأخذت أخبط على الباب وأنا أصرخ ..

- النجدة.. النار تشتعل.. أنقذوني.. سأموت.. النجدة يا زنوبة.. أبله نبوية..

ولكن لا حياة لمن تنادي، فلقد تجاهلوا ندائي، ولم تمر دقائق حتى سمعت الجميع يصرخ وسمعت صوت خطواتهن وهن يهرولن هرباً، فعلمت بأني لست الوحيدة التي ستلقى هذا المصير المخيف. الأطفال إن خافوا نادوا على أمهاتهم، أما أنا فوجدت نفسي أنادي لرباب..

- رباب .. النجدة .. النار يا رباب ستقتلني ..

مضى بعض الوقت، ولم تأت رباب فعلمت أنها نسيتني وهربت لتنجو بنفسها، لم أحزن كثيراً رغم خوفي، فأنا أحبها ولم أكن أرغب لها بأن تصاب بمكروهٍ لأجلي. كان لوقع خطواتٍ سبب في انجلاء كل أفكاري السوداوية، فكل ما فكرت به أن يعلم ذلك الشخص بوجودي ليساعدني..

- النجدة .. أرجوك .. أنا هنا..

- لا تخافي يا بديعة .. سأفتح لكِ الباب حالاً..

- رباب .. أين كنتِ؟.. افتحي لي أنا خائفة..

- لقد سرقت المفتاح من غرفة نبوية.. لا أعرف ما حدث في الملجأ كله يشتعل ولا أثر لزنوبة ونبوية ..

- أسرعي بالفتح هيا.. أكاد أختنق من الرائحة ..

- انتظري فالباب تحيطه النيران ..

فتحت لي رباب الباب يومها، لم أصدق بأني نجوت، جذبتها من يدها وأخذت أركض معها، ولكنها توقفت فجأة في فزع ..

- نسيت سوسو بالأسفل عند الغرفة عندما انشغلت بفتح الباب لكِ .. اسبقيني إلى الخارج سأعود في الحال ..

- سآتي معك ..

- لا داعي فأنا أعرف مكانه.. اذهبي أنتِ لأخذ قلادة أمي من الشجرة.. وسألتقيكِ بالخارج..

- حسناً .. ولكن أسرعي..

أسرعت الخطى نحو باب الملجأ، في محاولة لتدارك الأمر، كانت الأسرة مشتعلة وجميع الفتيات يصرخن خوفاً من النار، حتى أن النار اشتعلت في بعضهن، كان المنظر مخيفا، وكأن القيامة قد قامت، النار تلتهم كل شيء، أسرعت نحو الخارج حيث الشجرة ومددت يدي إليها وأخذت القلادة، ثم توجهت نحو الباب الخارجي للملجأ، في محاولة للوصول إليه من بين الحشود لأفتحه، كان القفل الحديدي كبير والسلسلة المحيطة بالباب قوية، أخذت إحدى الأحجار وأخذت أخبط القفل بالحجر لعله ينكسر، وبالفعل لم يتحمل القفل ضرباتي، فلقد كان مهترئاً وصدئاً على

كبره، ما إن فتح القفل حتى سحبت السلسلة لفتح الباب، هرعت جميع الفتيات إلى الخارج حتى أني كدت أسقط أرضاً من شدة الدفع.

خرجت أنا الأخرى، وانتظرت بالجانب الآخر أنتظر خروج رباب من الباب، ولكنها تأخرت، جاءت سيارة المطافي وبدأ رجال الأطفاء بجذب خراطيم المياه، في محاولة لإخماد النار، وإنقاذ من لم يستطعن الخروج من بين النيران، كل هذا الوقت ولم تخرج رباب، شعرت بالخوف الشديد عليها، وبدأت أشعر بأنه ربما أصابها مكروه، أخذت أنظر إلى رجال الإطفاء على أمل أن تخرج رباب بصحبة أحدهم، ولكن النار انطفأت ولم تخرج رباب، جاءت سيارات الشرطة، التي أثارت بداخلي الذعر من أن يقبضوا عليّ ويعيدوني إلى الملجأ مرة أخرى، فأخذت أركض بعيداً حتى لا يراني أحد.

لم أدرك يوماً بأن الشوارع ازدادت اتساعاً ووحشة بهذا الشكل، حتى أرصفتها لم تعد ترحب بأحد للنوم عليها، البشر يمرون بجانبها لا ينظرون أسفل أقدامهم، لذا لم تعد تنظر لأعلى رأسها لتراهم، جميع الوجوه تتشابه برغم اختلاف قلوبهم، ولكنهم جميعاً بالنسبة لها بشر، كنت أشعر ليلتها بالتعب، كم رغبت بأن تحتضني أرصفة الشوارع، مانحةً إياي القليل من السكينة لأنام، اقتربت من شجرة كبيرة في أحدى الحدائق، وافترشت أوراقها غطاءً لأنام تحته.

* * *

(٨)

استيقظت صباح ذلك اليوم على أحد العساكر، يلكزني بعصاه ..

- أنتِ.. استيقظي .. من أنتِ؟ .. ولماذا تنامين هنا؟..

- أنا .. أنا أسفة لقد شعرت بالتعب ليلاً ونمت..

- تعلمين بأن النوم هنا ممنوع.. أليس لديكِ أهل؟

- لا .. أهلي ماتوا جميعاً..

- تقصدين يتيمة.. إذاً تعالي معي لسيادة المأمور لنبحث لكِ عن ملجأ..

ما إن سمعت كلمة ملجأ، حتى أصابني الذعر، ولم أجد قدمي إلا وهي تركض، والعسكري يركض خلفي ويأمرني بالتوقف، ولكني لم أستطع وقتها إلا الركض، فلقد كان من سابع المستحيلات بالنسبة لي أن أعود مرة أخرى إلى الملجأ الذي ذقت به كل أنواع العذاب، نظرت خلفي لأتأكد بأنه لم يعد خلفي، وبالفعل لم يكن العسكري بذات اللياقة التي تساعده على الركض كثيراً، فلقد كان كرشه الذي يسبقه بأمتار كافياً لإرهاقه.. حمدت الله وأكملت طريقي، لا أدري إلى أين؟.. جل ما أردته أن أختفى بعيداً عن أعين الآخرين.

وقفت من التعب لآخذ أنفاسي، ولكن أنفاسي وقتها التقطت رائحة الطعام من على عربية الفول، توقفت لدقائق أتأمل الملتهمين لصحون الفول وسندوتشات الطعمية. سال لعابي قليلاً من الجوع، نظرت لنفسي فلم يكن معي حتى ما يضمن لي الحصول على سندوتش فول واحد، اقتربت من طرابيزة بائع الفول التي حملت على سطحها صحون الفول والطعمية والخبز الطازج، وأخذت أرمق الطعام بشبق، الجميع ينظر لي باستغراب إلا صاحب العربة الذي أدرك مدى جوعي.

فوجدته يناديني وهو يبتسم ..

- هل أنتِ جائعة؟ ..

لم ينتظر إجابه فلقد كانت عيناي ولعابي السائل على فمي كافياً بالإجابة.

- حسناً .. خذي هذا السندوتش واجلسي هناك لأكله..

خطفت السندوتش من يده بسرعة، وأخذت ألتهمه بجوع، كان منظر أكلي مخزياً حتى أن أحدهم صاح بي أن أذهب بعيداً، ولكن بياع الفول طلب منه الصمت، وأن يدعني آكل، ما إن انتهيت من السندوتش حتى نظرت إليه مرة أخرى، وكأني أقول له هل من مزيد؟

ضحك الرجل ببشاشة تدل على طيب القلب، ومد يده بسندوتش آخر عن طيب خاطر، أخذت ألتهمه كسابقه، لم أشعر بنفسي أو بمن حولي، كل همي وضعته في هذا السندوتش القادم نحو فمي لآكله.

أكملت السندوتش الذي كانت لديه القدرة على إسكات جوعي، وإشعاري بالتخمة أيضاً، نظرت للرجل هذه المرة وقد بدا عليّ علامات الرضا، فطن الرجل لشبعي، فابتسم قائلاً:

- أنا هنا كل يوم لو أردتِ أن تأكلي سندوتش من عربية عم فتحي..

خجلت قليلاً من كلماته، وتشجعت قليلاً ..

- شكراً ..

- هل لديكِ أهل؟

- لا .. فكلهم قد ماتوا..

- ماتوا جميعاً .. كيف؟؟

صمت قليلاً، فلم أكن لأغامر بإخباره عن عائلتي، وعن كوني بنت ريا ..

- ماتوا في حادث..

تركته وذهبت للجلوس بعيداً خوفاً من أن يزيد في سؤالي، فأجد نفسي وقد أخبرته بكل شيء، جلست على الرصيف أتأمل المارة، وأسترق النظر إلى عم فتحي وطرابيزة الفول الخاص به، وبينما أنا على هذه الحال، مر بي صبي يبيع الجرائد، أخذ ينادي بعناوين اليوم ..

- اقرأ الخبر ... موت بديعة بنت ريا في حريق الملجأ ..

obeikan.com

تعجبت كثيراً من هذا الخبر، فكيف مت وها أنا حيةٌ أرزق، أوقفته وطلبت منه أن يقرأ لي الخبر، في البداية اعترض وطلب مني شرائها ولكني توسلت له قليلاً لكي يقرأ لي فلم يكن معي مالاً لأعطيه إياه ولا علماً لأقرأ به.

- حسناً .. سأقرأ لكِ هذه المرة .. يقول الصحفي في الخبر" في حادث ليس بالغريب من نوعه، اندلعت النيران بأحد الملاجئ الخاصة بالأيتام بالأسكندرية، حيث لاقت الكثير من الفتيات حتفهن، والجدير بالذكر أن هذا الملجأ الذي أحيلت له بديعة بنت السفاحة ريا وحسب الله زوجها، ولقد لاقت الفتاة حتفها أيضاً في الحريق، فلقد وجدوا جثتها بالغرفة السفلية للملجأ والتي أكدت نبوية مديرة الملجأ أنها جثتها، فلقد كانت الفتاة ليلتها تثير الشغب مما جعلها تعاقبها بحبسها في الغرفة، التي لاقت بها حتفها، وهكذا بموت بديعه يغلق ملف عائلة السفاحة ريا وعائلتها."

- شكراً ..

- أخبريني ما الذي يهمك بهذا الخبر؟

- لاشيء أردت أن أتأكد أنها ليست حية حتى لا يأتي اليوم الذي تقتلني فيه ..

نظر لي الصبي وضحك، ثم تركني وأكمل طريقه ينادي على عناوين جرائده، لا يكتفي العالم عن ظلمنا أحياءً وأمواتاً، تلاحقنا عبارات

الجدل مهما حاولنا جاهدين تجنبها، حياتنا وموتنا يبيت خبراً يقرأ في جريدة قد تجدها عند أحد الباعة، يلف لك فيها سندوتشا.

أدركت حينها فقط أني لن أرى رباب مرة أخرى، أخرجت قلادة والدتها وأخذت أتأملها ودموع عيناي تكاد تصرخ من محجريهما، وأنا أشعر بكم الألم الذي شعرت به، ربما كان خبر موتي من أجمل الأخبار التي سمعتها على غير العادة، فربما بموتي - أو بالأصح بموت رباب- قد أعطيت فرصة جديدة للحياة.

إن أردنا يوماً أن نحيا بوجهٍ آخر لا يعرفنا به أحد، فعلينا أولاً إحراق الوجه الذي اعتادوا على رؤيته سابقاً، فالناس كثيراً ما تخدع بما تراه أمامهم، فالكثير .. الكثير يرتدون الأقنعه إيماناً منهم بأن العين فقط تصدق ما ترى.

* * *

obeikan.com

(٩)

أخذت بالمشي يومها في الشوارع لا أعرف ما عليّ فعله، فلا أهل لي ولا مكان، حتى الحديقة التي نمت بها بالأمس، لن أستطيع الذهاب إليها مرة أخرى حتى لا يقبض العسكري عليَ، وبينما أنا أفكر في حل يساعدني حتى على إيجاد لقمة الخبز، سمعت صوتاً يناديني ..

- بديعة .. بديعة..

نظرت خلفي بحذر، لأجدها فوزية إحدى ساكنات شارعنا، تعجبت كثيراً فكيف لها أن تعرفني بعد مضي ثلاث سنوات منذ موت أمي، شعرت بالذعر فلو أنها تعرفت عليّ فسيكشف أني ما زلت على قيد الحياة، وربما تبلغ عني الشرطة، ليقبضوا عليّ، أخذت أزيد في خطواتي، بينما هي تزيد بالنداء، حتى اختفيت منها بين الزحام، أخذت أراقبها وهي تبحث عني بين الناس.

وقتها فقط أدركت بأني لن أستطع العيش بالأسكندرية مرة أخرى، ففرصة إيجادي مرة أخرى وعودتي لما سبق جدية الوقوع، لم يكن أمامي إلا السفر بعيداً عن الأسكندرية التي لم تعد تختلف عن أي مكانٍ أخر، فأنا أشعر بالغربة فيها بدون عائلتي، ولكن معضلتي الوحيدة كانت في الحصول على النقود من أجل تذكرة القطار، تذكرت قلادة رباب التي بحوزتي، فكرت كثيراً ببيعها، ولكنها كل ماتبقى لي من رباب، كما أنها كانت

ذات قيمة عندها، لم يعد أمامي غير أن أعود لموضوع الشحاتة مرة أخرى، فأخذت أرفع يدي للمارة أطلب منهم إعطائي حسنة..

- لله يا ست.. لله يا بيه.. أشعر بالجوع .. تصدقوا على يتيمة لا تملك مالاً ولا مأوى..

كان لتلك الكلمات وقع السحر على بعضهم، ووقع الإزعاج للبعض الآخر، فأقصر طريق إلى جيوب الناس بدا وقت حنان قلوبهم؛ فبعض القلوب لا تعرف إلا الرحمة، التي لأول مرة أحوذ عليها وألتقيها وقتها، مضي اليوم وأنا بهذا الحال، حتى استطعت جمع تذكرة القطار والطعام أيضاً، توجهت من فوري إلى محطة قطار سيدي جابر، حيث اشتريت تذكرة الأسكندرية – القاهرة، فكما كنت أسمع أن القاهرة بلد كبيرة ولا يعرف بها أحد أحدا، ولقد بدت لي وقتها المكان الأفضل للاختباء ولإيجاد طرق جديدة لفتاة لم تتجاوز الثالثة عشر.

كان موعد القطار متأخراً، فاتخذت أحد كراسي الانتظار متكأً لأنام عليه حتى يأتي القطار، كانت المحطة هادئة وقتها فلقد شارفت الساعة على الواحدة بعد منتصف الليل، المحطة هادئة، سكن الليل يعتمها إلا من بعض المصابيح ذات الإضاءة الخافتة، البعض نائم والآخر ينتظر أن يأتي قطار الرحلة التي سيعبر بها إلى الخط الآخر من الدنيا.

الساعة الثالثة قبل الفجر، صوت صفير القطار يأتينا من بعيد، الجميع بدأ في حزم أمتعته إلا أنا فكل ما أرتديه هو حاصل ضرب أمتعتي في اللاشيء، أخذت أترقب القطار من بعيد حتى وصل إلى الرصيف الذي أنتظر به، نزل منه الكثير من العائدين أو المسافرين إلى الإسكندرية، وبين كل نزول هناك من يصعد إليه ليبادله الدور، شققت طريقي أنا أيضاً إلى باب القطار، ودخلت المقصورة أتأمل الناس النائمين فوق بعضهم، بينما آخرين ينامون بأريحية في الدرجة الأولى، لم تكن تذكرتي

غير درجة ثالثة وهي أرخص تذكرة استطعت شراءها، كي أحتفظ بما تبقى من مال لشراء طعام.

مضى القليل من الوقت حتى بدأت عجلات القطار بالانطلاق، كان انطلاقها بالنسبة لي انطلاقاً إلى المجهول الذي لا أعرفه حتى الآن، فلم يكن لي أحد أو وجهة معينه أذهب إليها، بل كان سفري هروباً من المجهول إلى مجهولٍ آخر، لم يأتني النوم ليلتها كنت أتطلع من نافذة القطار على الطريق، كنت أشعر بالحماس والفرحة فلقد كانت هذه أول مرة أسافر فيها أو أركب بها قطاراً، جاءني صوت قاطع التذاكر...

- تذكرة .. تذكرتك يا هانم .. تذكرتك يا بيه ..

ما إن رآني حتى توقف مكشراً عن أنيابه، اعتقاداً منه بأني راكبة متطفلة..

- أين تذكرتك يا فتاة؟ .. أخرجيها الآن وإلا رميتك من القطار..

نظرت إليه بتعالٍ ..

- انتظر .. انتظر.. لماذا ترميني من القطار؟ .. هاك ها هي التذكرة؟..

أخذ مني التذكرة وأخذ يطالعها، ثم قام بخرمها وإعطائها لي، شعرت بالسعادة وقتها فلأول مرة أشعر بأني كباقي البشر محترمة.. صحيح أن المال يكسبك احتراماً لا يعرفه إلا من يملكه.

* * *

obeikan.com

(١٠)

مضت ثلاث ساعات بين الإسكندرية والقاهرة، صوت صافرة القطار كانت تجوب سكون الليل معلنة عن مروره، كما أنك تستطيع سماع صوت صفارات القطارات وهي تحيي بعضها البعض، ما إن تمر بجانب بعضها، حتى يصل القطار لوجهته، مطلقاً آخر صفارة.. صفارة الوصول، بدأ الجميع بالاستيقاظ ولم أشلاءه، بينما نزلت أنا من درجات القطار وأنا في حيرة عن وجهتي القادمة، كانت المحطة مكتظة بالمسافرين، بالكاد استطعت رؤية طريقي بينهم، حتى خرجت من باب المحطة، الذي كان كباب الحياة الذي انفتح على عالم آخر يدعى القاهرة، بدأت أتأمل المارة بانبهار، الفتيات يرتدين الفساتين الجميلة التي تعكس أنوثتهن بالكعب العالي، سائقي التاكسي ينتظرون ركابهم، الرجال يمرون وكلٌ يحمل صحيفته ذهاباً للعمل، بينما يعلو رأس كلاً منهم طربوشه.

لم أكن أعرف إلى أين أتجه، فاتخذت جانباً من الرصيف لأرتاح عليه قليلاً حتى أعرف ما عليّ فعله، بينما أنا واضعه يدي على خدي أتأمل المارة، اقترب مني صبي في العاشرة من عمره، يرتدي جلبابا ويحمل على صدره صندوقا خشبيا صغيرا، وأخذ موضعاً وجلس، وقام بفتح

صندوقه الصغير مخرجاً فرشة وعلبة صغيرة بها دهان أسود وآخر بني، ثم أخذ ينادي ..

- ورنيش .. ورنيش ..

نظرت إليه بمقت، وأنا مستغربة من جلوسه بجانبي مسبباً الإزعاج لي بصوت ..

- صوتك قبيح .. هل يمكنك الجلوس بعيداً قليلاً؟

نظر لي رافعاً حاجبية ..

- أنا جالس في الشارع .. الذي يملكه الجميع .. ومن لا يعجبه صوتي يمكنه الجلوس بعيداً..

ثم عاد ينادي زبائنه في تجاهل واضح لي ..

- ورنيش يا بيه .. ورنيش ..

- ولكنني من اختار هذا المكان أولاً .. فمن حقي أن أختار من يجلس بجانبي..

- أرجوكي لا تزعجيني .. أريد أن أجمع أجري اليوم لأعود للمنزل باكراً .. أليس لديكِ مكاناً آخر تذهبين إليه؟

نظرت للأرض بيأس، وبقيت صامته لدقائق، ثم أعدت النظر إليه ..

- لا .. ليس لدي مكان أذهب إليه..

- هل أنتِ ضائعة؟

- لا .. ولكني لست من القاهرة ..

- من أين أنتِ؟

- أنا من الأسكندرية ..

- وأين أهلك ؟..

يبدو أن السؤال عن أهلي لن يتوقف، فكل من يلتقي بي يسألني ذات السؤال..

- ماتوا جميعاً في حادث ..

- ولماذا أتيتي إلى القاهرة؟

- جئت لأجد عملاً .. يطعمني ويؤويني ..

- أنتِ اسمك أيه ؟

- بـ.....

كدت أقول له اسمي الحقيقي عندما تراجعت فجأة ...

- رباب .. اسمي رباب .. وأنت؟

- أنا اسمي حسين .. اسمعي يا رباب ما رأيك بالعمل كخادمة؟.. أمي تعمل كخادمة عند ناس طيبين وقد سمعتها ليلة الأمس تحدث

obeikan.com

والدي عن طلبهم لفتاة أخرى لتساعد أمي بأعمال المنزل.. يمكنني أن أطلب من والدتي محادثتهم..

شعرت بالسعادة لأن الله سخر لي من يساعدني، ووافقت بدون تردد، طلب مني حسين أن أنتظر حتى يكمل عمله، ليأخذني إلى والدته لمساعدتي، ومن شده سعادتي أخذت أنادي الزبائن أن يحضروا إليه، في محاولة لمساعدته للانتهاء باكراً، وبالفعل جمعنا يومها مبلغاً لا بأس به، وعدت بصحبة حسين إلى منزلهم الكائن ببيت النحاس، وما إن وصلنا إلى المنزل حتى طلب مني حسين أن أنتظره بالخارج، حتى يناديني، دخل حسين بيتهم ولم يمر الكثير من الوقت حتى ناداني، طالباً مني الدخول، دخلت منزلهم على استحياء، كان منزلاً بسيط جداً، فلا يغطي الأرض غير قطعة من القماش البالي والممزق، يترأس زاوية منزلهم كنبة قديمة. كانت والدته تجلس بالمطبخ حين نادتني للدخول، كانت تجلس على الأرض بجانب البابور، بجلابية قديمة باهتة الألوان، تعد طعام الغداء قبل أن يأتي أبو حسين من بيع الخضار.

نظرت لي وهي تبتسم : تفضلي يا ابنتي .. حسين أخبرني عنكِ وكيف أنك كنتِ وجه السعد عليه اليوم.. فلأول مرة يجمع هذا المبلغ من المال.. أخبريني يا رباب ماذا تعرفين عمله بالمنزل؟

تأملت قليلاً ملامح الطيبة التي بدت جلية على وجهها المتعب، ثم ابتسمت بحماس ..

- أستطيع التنظيف وغسيل الصحون ..

- هل تستطيعين الطبخ؟

- لا .. لا أعرف ..

شعرت باليأس قليلاً، اعتقاداً مني أن عدم معرفتي بالطبيخ قد يكون سبباً في عدم عملي، ولكن أم حسين لم تبدي اهتماماً بالموضوع، فكل ما كانت تريده فتاة تساعدها في أعمال المنزل العادية، أشارت إلى ابنها حسين أن يأخذني إلى الصالة حتى تنتهي من الطبخ، وتأتي لإكمال الحديث معي، أخذني حسين وأجلسني على كنبتهم القديمة بجانب النافذة، التي ترى منها أرجل المارة في الحارة، التي تفضح أحذية كل منهم قصته، فلقد كان المنزل دور أرضي، تطل جميع نوافذه على أرضية الشارع المرتفعة عنه قليلاً.

تبدو الحياة أجمل بقاطنيها من البشر الطيبين، الذين لا يعرفون مكاناً للحقد، جل اهتمامهم أن يحيوا بكرامة، لا يطمعون بأكثر من قوت يومهم الذي يسد رمقهم.

* * *

obeikan.com

(١١)

خرج حسين لإحضار بعض الأشياء التي طلبتها منه والدته، وما إن عاد حتى ترك الأشياء بالمطبخ، وأتاني مسرعاً يجذبني من يدي إلى الخارج..

- إلى أين تأخذني يا حسين؟

- سنذهب لمشاهدة القرد وهو يرقص .. القرداتي هناك على أول الشارع..

- حسناً .. انتظر قليلاً .. أكاد أسقط منك ..

ركضت أنا وحسين إلى أول الشارع حيث القرداتي، الذي أخذ يدق على الدف بينما القرد المربوط بالسلسلة يلعب أمامه، كان الجميع مستمتعا بما يرى ويصفق للقرد، بينما الأطفال يضحكون على منظر القرد.

أخذت أحدق في القرد الراقص باستمتاع، وأخذت أضحك عندما بدأ حسين في مراقصة القرد بينما صاحبه يدق لهم، وبينما هو هكذا، سمعنا صوتاً يناديه..

- حسين .. ولد يا حسين ..

نظر له حسين، وقد ميز صوت المنادي ..

obeikan.com

- أبويه ..

- تعالى هنا يا ولد .. ماذا تفعل هنا؟

- كنت أشاهد القرداتي يا أبي..

- حسناً .. هي بنا إلى المنزل.. هل أعدت والدتك الطعام؟

- تركتها هناك تطبخ ..

أحاط أبو حسين ذراعه على كتف حسين، الذي حمل منه القفة التي يستخدمها لبيع الخضار، وتقدما في المشي بينما أنا أراقبهما في مكاني، حزنت كثيراً لأن حسين نسيني وتركني وحيدة، وقبل أن أدير ظهري، وجدته يخبط ذراعي وهو يطلب مني مرافقته، رافقت حسين إلى حيث كان والده بانتظاره، نظر لي والده متعجباً وأخذ يسأله ..

- من هذه يا حسين؟ .. صديقتك ..

- نعم يا أبي .. هذه رباب ستأخذها أمي للعمل معها غداً في بيت الست فوزية..

- ومن أين عرفتها يا حسين؟

- كانت تجلس في محطة القطار.. لقد ساعدتني اليوم على جني مبلغ محترم..

عقد والده حاجبه، وكأنه لم يستسيغ كلام ابنه، ونظر إليّ نظرة شك..

- أهلاً يا ابنتي .. ولماذا كنتِ تجلسين بمحطة القاهرة؟ هل أنتِ ضائعة؟

أسرع ابنه حسين بالرد ..

- لا يا أبي .. فلقد مات والداها في حادث سيارة.. وقد جاءت من الإسكندرية لتبحث عن عمل.. فأخبرتها عن العمل في بيت الست فوزية ..

خبط الأب بيده على ظهر ابنه بضع خبطات مبتسماً، ثم سبقنا إلى دخول المنزل منادياً لأم حسين، التي لم تسمعه بسبب صوت البابور العالي، ففضل دخول المطبخ إليها، بينما نحن توضعنا وضعية الجلوس على الكنبة.

شعرت بالقلق من أبي حسين، فلم أشعر بأنه يستسيغني، حاولت أن أسترق السمع قليلاً لأعرف ما قد يدور من حوار بينه وبين أم حسين، ولكن صوت البابور العالي لم يعطني تلك الفرصة، مر بعض الوقت وأبو حسين ما زال بالمطبخ يحادث زوجته، ثم قام بمناداة حسين، الذي اتجه للمطبخ ركضاً، علمت وقتها بأنه سيتم طردي إلى الشارع مرة أخرى، فلم يكن أبو حسين ليقبل أن يلم في منزله فتاة من الشارع لا يعرف أصلها من فصلها، كما لن يرضى بأن تعرض زوجته عملها للخطر بجلب فتاة مشكوك في أمرها.

لم أكن أعلم وقتها هل عليّ أن أؤلف قصة لعلهما يصدقاها فيتركاني أبقى قليلاً معهم، حتى أستطيع الاعتماد على نفسي، أم ألتزم بالصمت، تاركةً الأقدار تلعب لعبتها معي، خرج حسين من المطبخ برفقة والده وقد اختفت من على شفتيه تلك الابتسامة، التي غادرني بها، تبعتهم أم حسين

من المطبخ تحمل في يدها طبلية الطعام، التي وضعتها في منتصف المكان، ثم طلبت مني أن أساعدها في تقديم الطعام، انتهينا من تقديم الطعام، والتف الجميع حول الطبلية التي لم يظهر على معالم طعامه أي أثر للحم.

- بعد تناول القضمة الأولى لأول ملعقة أرز مخلوطة بالبامية، التفت أبو حسين لأم حسين ..

- الله .. الله يا أم حسين .. طبيخك هذا لا يُعلى عليه.. تسلم أيدك ..

- ربنا يخليك يا أبو حسين.. هذا كله من خيرك ..

- التفتت لي أم حسين، وأنا أحرك الملعقة بالصحن وقد بدا عليَّ الحزن، الذي أفقدني شهيتي..

- كلي يا رباب .. لماذا لا تأكلين؟.. ألا يعجبك الطعام؟

- لا بالعكس .. فطعامك لذيذ كما قال عم أبو حسين.. سأكل الآن..

- أخذت آكل بضع ملاعق، حين قاطعني عم أبو حسين بسؤاله ..

- أخبريني يا رباب .. ما هي قصتك؟... ولا تكذبي عليّ ..

- صمت قليلاً وقد أيقنت أن عدم اقتناعه بقصتي لن ينتهي، لذا كان عليّ الارتجال بقصة من تأليفي ..

- بعد موت والدي، ذهبت للعيش مع عمي وزوجته التي كانت تذيقني كل أنواع العذاب.. فلم تكن تطعمني وكانت دائماً تقوم بضربي

وتجعلني أقوم بأعمال المنزل وحدي.. وابنتها زنوبة تجلس هناك بدون عمل.. تعبت من معاملتهم السيئة لي .. لذا قررت الهرب إلى هنا..

- نظر لي وقد بدا عليه الحزن مما سمع ..

- ولماذا لم تخبرينا بهذا من قبل؟

- خفت أن تعيدوني إليهم مرة أخرى..

- حسناً .. كلي الآن يا رباب .. أكملي طعامك هيا..

أخذت آكل مصطنعة الحزن لأستجدي شفقتهم، الذي يبدو أني نجحت في الحصول عليها. قضيت اليوم معهم، وفي المساء جهزت لي أم حسين الكنبة لكي أنام عليها، بينما ينام حسين معهم بالغرفة، عانيت ليلتها من تأنيب الضمير، فلم أرغب يوماً باستخدام الخداع أو الكذب للوصول لغرضٍ ما، ولكن تدفعنا الظروف أحياناً إلى التماشي معها بما يناسبها، حتى لو اختلقنا لأنفسنا أسباباً واهية لا أساس لها.

* * *

obeikan.com

(١٢)

في صباح اليوم التالي حضَّرت أم حسين الفطور، وأيقظت الجميع لتناول الإفطار قبل أن يذهب الجميع لأعمالهم، تناولت طعام الفطور معهم، وما إن انتهيت حتى طلبت مني أم حسين مرافقتها إلى منزل الست فوزية، دخلت المنزل الذي كان مميزاً بما فيه من أثاث أنيق، يدل على ذوق أصحابه، تقدمت أم حسين وأنا أتبعها في خجل إلى حيث تجلس الست فوزية، لأول مرة أرى امرأة بهذا الجمال والأناقة، كان جسدها يلفه فستان يظهر جمالها، وشعرها الأسود المقصوص العائد إلى الخلف، تلك الشفاه التي تغطيها الحمرة، والعينان التي اكتحلتا بالسواد الغامق، الذي ساعد خضار عيناها على البروز.

- السلام عليكم يا ست فوزية ..

- وعليكم السلام .. كيف حالك يا أم حسين؟ .. من هذه؟ هل هذه ابنتك؟

دفعتني أم حسين قليلاً للأمام، ثم أردفت ..

- لا .. هذه بنت أحد معارفنا.. كانت تبحث عن عمل حتى أخبرتها بطلبك خادمة لمساعدتي بالمنزل.. ولقد أحضرتها اليوم لكي تريها وتبتي في أمرها..

- تعالي يا شاطرة .. ما اسمك؟

نظرت إليها بخجل، وأنا أتلجلج في الإجابة ..

- اسمي رباب يا ست هانم ..

- هل تجيدين الطبخ والتنظيف يا رباب؟

نظرت لأم حسين في تردد، والتي بادرت الست فوزية بالإجابة ..

- رباب لا تعرف الطبخ ولكنها ممتازة في عمل المنزل ..

- لا بأس .. بما أنكِ سترتاحين في العمل معها فلا بأس بأن تعمل لدينا .. خذيها في جولة في المنزل لتعرفه ثم ابدئي بتحضير الطعام .. إسماعيل أفندي سيحضر اليوم مبكراً لتناول الطعام..

- حاضر يا ست هانم .. هيا يا رباب ..

ذهبت بصحبة أم حسين في جولة في المنزل، والتي كان لها جليل الأثر في إذهالي؛ فللمرة الأولى أرى منزلاً بهذا الجمال، غرفة النوم تحتوي فعلياً على سرير ودولاب خشبي وتسريحة ذات مرآة جميلة تزينها الورود الذهبية من حولها، المنزل كله مفروش بالسجاد، الذي كان يداعب قدمي الحافية، ملمس الزجاج الناعم في غرفة السفرة، وأطقم الصيني اللامع بأشكاله المزركشة الجميلة، تذهل العين بألوانها، هذا غير الأثير اللامع المتواجد في بعض غرف المنزل، لأول مرة أرى كيف يحيا من هم في الطبقات العليا من المجتمع، على الرغم من كون عائلة الست فوزية من الطبقة المتوسطة كما يطلقون عليها.

عدت بعد هذه الجولة إلى المطبخ مع أم حسين، وأنا مصابة بالذهول مما رأيت، وسارحة في الحياة الجميلة التي ينعم فيها أهل هذا البيت، قطعت شرودي أم حسين بسؤالها ..

- ماذا بك يا رباب؟ .. تبدين شاردة .. هل أعجبك المنزل لهذه الدرجة؟..

- أعجبني .. بل أثار جنوني بجماله..

- قولي ما شاء الله يا رباب .. ستحسدين الناس ..

- ما شاء الله .. ما شاء الله ..

- خذي هذا البصل وقشريه .. هيا يجب أن ننتهي من الطعام قبل عودة إسماعيل أفندي.. فهو يكره تأخر الطعام جداً..

نظرت لها بعينين يملؤهما الفضول ..

- ماذا يعمل إسماعيل أفندي؟

- إسماعيل أفندي أميرالاي في البوليس..

شعرت فجأة بقلبي ينبض بسرعة من الخوف، حتى أني لم أنتبه لجرح يدي..

- بوليس ..

- نعم .. وماذا في هذا؟.. ولكن الشهادة لله أنه يختلف عن الباقين فهو رجل طيب ويراعي الله في أموره جداً..

obeikan.com

ارتحت قليلاً لكلمات أم حسين التي ذكرتني بالضابط الذي قام بالتحقيق معي في طيبته، بالرغم أني وددت لو أني أنسى تلك الذكريات المؤلمة، أقسى أنواع الذكريات التي نملكها، تلك التي تثير بداخلنا أقوى أنواع الشجن والحزن، وتأنيب الضمير، هذه هي أكثر الذكريات التي مهما حاولنا التخلص منها، نراها دائمة الظهور أمامنا في كل موقف وأحياناً في كل وقت.

كنت قد شارفت على الانتهاء من تنظيف المنزل وتلميعه، حين سمعت صوت خبطات قوية على الباب، توجهت تلقائياً نحو الباب أفتحه، حين رأيت رجلاً ضخما، ذا شاربين معقوفين إلى الأعلى، مظهرين جمال تشذيبهما، يرتدي ملابس بوليسية، أدركت وقتها أنه إسماعيل أفندي، الذي أخذ ينظر إلي بتمعن متعجباً ..

- من أنتِ ؟

- خادمتك رباب ..

- رباب .. أين أم حسين؟

- أم حسين هي من أحضرتني ..

- حسناً.. خذي الطربوش وضعيه مكانه ونادي للهانم ..

أخذت الطربوش منه وتوجهت حيث الست فوزية تجلس ..

- ست هانم .. لقد حضر إسماعيل أفندي ويطلبك الآن ..

قفزت الست فوزية من مكانها مسرعة إلى خارج الغرفة، لمقابلة زوجها إسماعيل، بينما احترت أنا مع الطربوش الذي لم أعرف

مكانه الذي يوضع به، فتوجهت إلى أم حسين أسألها عن مكان وضع الطربوش، والتي ما إن رأتني حتى صرخت فيّ بهلع ..

- أخرجي الطربوش إلى الخارج .. آه لو رآكِ إسماعيل أفندي.. كان "طين عيشتنا" أنا وأنت.. اذهبي به إلى غرفة النوم وضعيه على علاقة الملابس الخشبية..

توجهت إلى غرفة النوم مسرعة، ووضعت بهدوء الطربوش على علاقة الملابس وأغلقت الباب خروجاً بهدوء، وعدت بعدها إلى المطبخ، لأكمل مساعدة أم حسين في تقديم الطعام، وبينما نحن نضع الطعام على المائدة الكبيرة، بادر إسماعيل أفندي أم حسين بحديثه ...

- أم حسين .. ستضطرين إلى التأخر الليلة قليلاً .. فاليوم سيأتي عبد الحكيم أفندي بعوده ومعه شلة من الأصدقاء لقضاء السهرة هنا..

- حاضر يا بيه .. هل أحضر المشروبات المعتادة ككل مرة ؟

- نعم .. وأكثري من الحلويات هذه المرة..

ما إن عدنا للمطبخ حتى بادرت أم حسين بأسئلتي عن سهرة الليلة، والتي أجابتني بأن إسماعيل أفندي رجل يحب الموسيقى الراقية، وكل خميس يجتمع مع أصدقائه في غرفة الصالون لقضاء سهرة موسيقية، على أنغام عبد الحكيم أفندي والذي يمتلك صوتاً ملائكياً، كانت تلك المرة الأولى التي سأحضر فيها سهرة كهذه، لذا كنت في قمة الشوق لرؤية ما سيحدث.

* * *

obeikan.com

(١٣)

بحلول المساء بدأ الضيوف في القدوم، ما إن دق الباب حتى هرعت إليه لكي أقوم بفتحه، لكن الست فوزية استوقفتني قائلة ..

- ما هذا يا رباب؟ .. ستقابلين الناس بهذا الجلباب المتهرئ!!.. تعالي خلفي ..

فتحت الست فوزية الباب مرحبة بالضيوف، ثم تبعتها إلى غرفتها حيث أعطتني جلابية بدت بالية بالنسبة لها، بينما شعرت كأنها ملابس العيد بالنسبة لي، كانت الجلابية طويلة عليّ، فأخبرتني أم حسين أنها ستقوم بتقصيرها لي ما إن نعود إلى المنزل، وأن عليّ فقط أن أحمل طرفها بيدي حتى لا أتعثر، وهكذا بدأت في استقبال الضيوف الذين أخذوا ينظرون إليّ باستغراب ويسألونني من أنا؟. لأجيب كلاً منهم بذات الإجابة "أنا الخادمة الجديدة"، فيهزون رأسهم بالفهم ثم يتوجهون إلى الصالون حيث الآخرين.

انشغلت أم حسين في المطبخ بإعداد الحلوى والمشروبات، بينما أخذت أنا الاقتراب من الصالون لعلي أسمع ما يُغنى بشكلٍ أوضح، جلست بجانب الباب منزوية حتى لا يراني أحد أستمع إليهم..

- أخبرني يا إسماعيل أفندي .. ما هو رأيك في قرار الملك فؤاد بعمل وزارة جديدة؟

- والله إنها لفكرة أفضل .. على الأقل ستكون منفصلة عن الجانب الملكي قليلاً..

- لا أدري .. يقولون إن سعد زغلول هو من تولى منصب الوزارة الجديد..

- أنت تعرف أن سعد زغلول من الثوار .. وربما تأتي الوزارة الجديدة علينا بمنافع ..

يقاطعهما أحدهم ..

- ما هذا هل جئنا هنا لنتحدث عن السياسة؟... ابدأ يا عبد الحكيم أفندي الغناء ففي صوتك خمراً يسكرني..

ضحك الجميع من كلمات ذلك الرجل، وشرع عبد الحكيم أفندي في الغناء على عوده، كانت المقطوعة التي عزفها وهو يغني، تدفعك فعلاً إلى السكر، فالرجل يمتلك صوتاً رخيماً ملائكياً يمتلك أحاسيسك بطريقة مذهلة، فلا تشعر بما تفعل أو تقول، حتى أني من كثرة سطلي، لم أسمع صوت أم حسين التي أخذت تناديني لتقديم المشروبات، والتي ما إن فقدت الأمل فيّ حتى جاءت بنفسها تقدمها، ثم أخذت تعاتبني على إهمالي..

- اسمعي يا رباب .. نحن هنا لنعمل لا لنستمع إلى صوت عبد الحكيم أو غيره.. هم لهم عالمهم ونحن لنا عالمنا ولقمة عيشنا.. فلا أريد أن أراكِ بجانب تلك الغرفة مرة أخرى..

- حاضر.. ولكن صوت عبد الحكيم أفندي آ.....

- ماذا قلت لكِ يا رباب؟.. مكانك هنا بالمطبخ معي.. ما إن أعطيكِ الأشياء لتقديمها حتى تذهبي بسرعة لوضعها ثم تعودين إلى هنا.. فهمتي ..

أجبتها في استسلام غير راضية عما قالته ....

- حاضر...

حتى لحظات السعادة القصيرة لم تكتب على الفقراء، فهي دائماً للأغنياء ممن أصابهم التخمة منها، فجل هم الفقير هو جمع قوته، الذي يدخل السعادة إلى قلبه بعد الشقاء، لذا ترى أم حسين آخر الشهر تكاد تموت من الفرحة عند استلام مرتبها، وتزداد سعادتها لو أعطتها الست فوزية جلابية قديمة كانت ترغب برميها أو مبلغا صغيرا من المال زيادة عن المرتب.

أما أنا فلقد سلمت الست فوزية مرتبي لأم حسين بما أنها مسئولة عني، وأنا بصراحة لم أعر الموضوع اهتماماً فيكفيني أنهم آووني في منزلهم واقتطعوا من طعامهم لأجلي، ولكن أم حسين كانت امرأة طيبة لذا تفاجأت بها تعطيني جزءا من مرتبي، تطلب مني أن أنفقه على ما أريد، ذلك اليوم بالذات ذقت طعم اللحم الذي اشتراه لنا أبو حسين حين

عودته من بيع الخضار، كان للطعام طعماً آخر ذلك اليوم، ليس لوجود اللحم، بل لسعادتي بأول قرش أكسبه في حياتي، حتى أني احترت على ماذا أنفقه.

حتى أني سألت حسين أن يأتي معي للمحلات لشراء حذاء جديد، والذي سعد كثيراً بذلك، قررنا الاتجاه إلى شارع عبد العزيز حيث محلات عمر أفندي، التي أبهرتني برقيها وجمالها المعماري، كانت الفترينات تعج بالملابس والأحذية، التي أرى الفتيات يرتدينها في الشارع، أخذت أنظر إلى أحد الأحذية الجميلة، بلونه الأحمر وكعبه العالي الأنثوي، ولكن لافتة السعر التي كانت بجانبه، جعلتني أشعر باليأس من شرائه، فلم يكن بحوزتي ما يمكني من شراء الكعب فقط.

التفت حسين إلي ..

- ماذا سنفعل يا رباب؟ .. لا يكفي المال الذي معك لشراء أياً من تلك الأشياء الجميلة..

- ولكن الكثير من الناس يخرجون أمامك محملين بالعلب التي تحمل الأشياء الجميلة.. فلماذا لا يكون نصيبنا يوماً أن نكون مثلهم؟

- يا رباب هؤلاء ناس ونحن ناس.. هؤلاء بهوات وهوانم .. أما نحن فخدم..

- خدم .. فقراء .. ليتنا يوماً نصبح مثلهم ..

- هيا يا رباب واحمدي الله على ما أعطاكِ..

نظرت إلى حسين نظرة يأس وعدم اقتناع بما أسمعه ..

- حسناً .. هيا بنا نمشي قليلاً..

حاول حسين أن يرفه عني قليلاً ....

- تعالي .. سوف أريكي القاهرة اليوم .. ما رأيك؟

هززت رأسي بالقبول، ومضيت معه مغادرة عمر أفندي وأنا مصممة أن أعود إليه يوماً ما كزبونه وليس كمتفرجة، جذبني حسين من يدي لنلحق بالحنطور، الذي ركبنا خلف عربته خفية، توجه بنا الحنطور إلى كوبري قصر النيل، حيث رأيت الأسدين القابعين على بداية الجسر كحارسين له، وقفنا من خلف أعمدة السور نشاهد النيل، تأملته بعمق شديد، وكأني روحي كادت تغرق به، تذكرت معه بحر الإسكندرية وذكرياتي معه، عندما كنت أذهب أحياناً إلى هناك لأشتكي لبحره عما يفعله عائلتي بي.

قاطع حسين شرودي ...

- رباب .. أتريدين بعض الترمس؟ ..

نظرت إلى ما لدي من مال ثم بادرته..

- خذ يا حسين .. اشتري لنا بهذا ترمس..

- لا يا رباب .. سأعزمك هذه المرة على حسابي .. فلقد جمعت اليوم مبلغا محترما .. أعطاني منه والدي بضعه قروش..

اشترى حسين قرطاسي ترمس، ثم بدأنا بالمشي قليلاً في الشوارع، كم كنت سعيدة برؤيتي للقاهرة، فلقد كانت تلك المرة الأولى التي أراها، لقد كانت تنبع بالجمال، كنت سعيدة وأنا أراقب الناس وأشاهد فترينات المحلات عن قرب.

يبدو أن أول مرة دائماً، تحفر بداخلنا ذكريات لا يمكن محوها، فأول تجربة تمر بالإنسان، تحمل بداخلها لذة لا توصف.

* * *

opeikan.com

(١٤)

مرت سنة على عملي لدى الست فوزية، تعلمت ورأيت فيها الكثير، لم تسئ الست فوزية يوماً معاملتي بل كانت تعطف عليّ بما تجيد به يدها من ملابس أو أحذية قديمة، والتي كان معظمها لا يناسبني في المقاس، ولكني كنت أسعد كثيراً بما أحصل عليه، وما لم يناسبني كنت أحتفظ به في كيس صغير صنعته من القماش، لعلي أكبر يوماً وأرتديهم، كنت أنظف البيت كعادتي حين دق باب المنزل، ذهبت لأفتح الباب لأجد شابا في التاسعة عشرة من عمره، يرتدي جلبابا سكريا وبالطو بني اللون، يحمل بعض الأغراض بيده.

- من أنت؟ .. وماذا تريد؟

وجدته بكل جلافة .....

- اذهبي يا فتاة ونادي الست فوزية..

- لن أذهب قبل أن أعرف من أنت؟

- يبدو أنك (غلابوية) كثيرة الكلام .. اذهبي لمنادتها .. أخبريها بأن سعد أحضر الأغراض المطلوبة ..

ركضت إلى الست فوزية الجالسة بالشرفة أخبرها عن سعد ..

- هناك شاب اسمه سعد .. يقول بأنه أحضر الأغراض المطلوبة ..

- حسناً .. خذي منه الأغراض إلى المطبخ يا رباب .. واطلبي منه أن ينتظر حتى أحضر له المال..

ذهبت إليه ماده يدي نحوه..

- الست تقول لك أن تعطيني الأغراض .. وأن تنتظرها حتى تعطيك المال..

أعطاني الأغراض وهو ينظر لي بشكل أثار استفزازي، فلقد كانت نظراته تدل على وقاحة ظاهرة، تركته وذهبت للمطبخ، ثم عدت لتنظيف المنزل.

لم أستطع تلك الليلة النوم وأنا أفكر بذلك الأخرق، لم يكن بتلك الوسامة قد تكون بداية شاربه أعطته نوعاً من الجمال، لأول مرة يبتسم لي ولد ويحدق بي بهذا الشكل، فكل من عرفتهم لا ينظرون إلي ولا يرغبون باللعب معي، كلما أغمضت عيني كنت أراه لدرجة أخافتني، حتى قلبي كان ينبض بشكل مختلف، حاولت ألا أعير الموضوع اهتماماً، حتى أحصل على قسط من الراحة يبقيني نشيطة للقيام بعملي غداً، وبالفعل أغمضت عيني بصعوبة قبيل الفجر.

الحب هو الشعور الوحيد الذي نقف عاجزين عندما يداهمنا في خلجات الليل، وكأنه يستغل وحدتنا بليله الطويل المليء بالأحلام والأمنيات، يمنحنا الأمل والثقة بالنفس، لنغدو أمام مرآتنا أكثر جمالاً.

اليوم التالي كنت مرهقة من سهر ليلة الأمس، وقد بدا عليّ التعب قليلاً، ولكني استطعت إكمال عملي والجلوس في المطبخ مع أم حسين، التي

قدرت منظري ولم تثقل عليّ بطلب المساعدة، وبرغم كل التعب الذي كنت أشعر به، فقد كنت في حالة ترقب شديد لأي صوت يأتي من حيث مكان الباب، وكأني بانتظار أحدهم، وبالفعل بمجرد ما سمعت دق الباب حتى هرعت من مكاني كمن لدغه عقرب مسرعة نحو الباب؛ حتى أن أم حسين تعجبت من أمري وهي تراني أركض كالمجنونة، فتحت الباب بسرعه، لأجده إسماعيل أفندي، فأصابني الإحباط ...

- إسماعيل أفندي ..

- نعم .. هل كنتِ بانتظار أحد؟

أصابني الإحراج وقتها، واحمرت وجنتاي خجلاً ..

- لا .. لا .. أقصد تفضل..

وجدته ينظر خلفه وينادي ..

- تعالى يا سعد .. أدخل الأشياء..

بمجرد أن سمعت اسمه، حتى شعرت بقلبي يخفق بسرعة حتى اعتقدت بأنه جدياً سيتوقف عن العمل، تسمرت في مكاني، لا أعلم هل أركض مختبئة أم أبقى ساكنة بدون إبداء أي حركة، نظر إلي إسماعيل أفندي متعجباً ..

- لماذا تقفين هكذا؟ .. ساعديه يا رباب ..

أجبته ببلاهة ..

- هاه .. حاضر .. حاضر

اتجهت نحوه كي أحمل عنه قفص الطيور بينما هو يحمل بقية الأكياس، أكاد لا أصدق أنه لمس يدي وهو يعطيني القفص والذي لرهبتي أسقطته في المرة الأولى، التفت إسماعيل أفندي فجأة معاتباً..

- ماذا بكِ يا رباب؟.. ألا تستطيعين حمل هذا القفص الصغير..

- أعتذر يا بيه ..

كان إسماعيل أفندي يومها عائداً من البلد – القرية- محملاً بالفطير والجبنة القريش، وقفص من الطيور المنوعة من دجاج وبط وحمام، فإسماعيل أفندي يملك قطعة من الأرض هناك، يذهب إليها كل شهر لأخذ الإيجار من الفلاحين ليعود دائماً محملاً بالخيرات.

نظر إليَّ سعد بهدوء وبثقة كبيرة أفقدتني صوابي ..

- كيف حالك يا رباب؟

توجمت الصمت وأنا بجانبه، فبادرني بصوت خافت حتى لا يسمعه إسماعيل أفندي ..

- تبدين اليوم جميلة..

أصابتني الدهشة، ودب بقلبي الخوف فجأة فلم يخبرني أحد من قبل أني جميلة، حتى أمي لم تقل تلك الكلمة لي يوماً، بل كان السباب هو الكلمات الجميلة التي تطلقها نحوي، أسرعت الخطى نحو المطبخ،

ووقفت بجانب أم حسين أنظر للأرض، حتى غادر سعد، وما أن غادر حتى تنفست الصعداء، وبدأت بترتيب الأشياء مع أم حسين، وبينما نحن نرتب الأشياء بادرتها بسؤالي ..

- من سعد هذا يا أم حسين؟

نظرت لي نظرة خبث وبادرتني ..

- لماذا تسألين؟

فاصطنعت الغباء ..

- لا شيء .. ولكني أول مرة أراه ..

- أنه مخبر جديد.. والده أحد الفلاحين والذي طلب من إسماعيل أفندي أن يتوسط له للعمل .. فجعله مخبراً لديهم .. وكما ترين يبدو أن إسماعيل أفندي يستغل وجوده فيطلب منه شراء أغراض المنزل.. الحمدلله فلقد كانت عملية الشراء هماً على قلبي ..

- هل معنى هذا أننا لن نذهب للسوق مرة أخرى؟..

- قولي يا رب .. فبوجود سعد لن نحتاج للذهاب..

ابتسمت نصف ابتسامة، وقد أيقنت أنها لن تكون المرة الأخيرة التي سأرى فيها سعد، تبدأ قصص الحب بنظرة تكسر حاجز الجليد، الذي لطالما حاولنا الحفاظ عليه. هناك أشخاصٌ فقط قادرون على إذابة أي شيء بهذه النظرة، وهي قدرة لا يملكها الكثيرون.

* * *

obeikan.com

(١٥)

مر شهران من حياتي، لم يغب يوماً سعد عنها، حتى أني كنت أشتاق إليه في غيابه، وتمر جميع أوقاتي بدونه بقسوة، أنتظر حضوره كانتظار الطفل للعيد، خلال تلك الفترة تبادلنا بعض الكلمات التي استطاعت أن توصل الجسور المفقودة بيننا. لقد كان لكلماته وقع السحر عليّ، أقضي يومي أفكر في كلماته، وليلي سهراً أفكر فيه، لم أشعر يوماً بمعنى الحب، فعائلتي لم تعطني يوماً الحب كما يجب، لم يكن والدي أباً كبقية الآباء ممن أراهم، فلقد كانت معاملته لي أقسى من معاملة زوج الأب لابنة زوجته، ولم تكن أمي لتعارضه في شيء، بل كانت كثيراً ما تشاركه تلك القسوة، حب سعد جعلني أرى الحياة بعينين أكثر جمالاً، ولكن هناك دائماً ما كان ينغص عليَّ، ألا وهو اسمي .. ليس اسمي الحقيقي، بل اسمي الذي اخترت ارتدائه أمام الآخرين، تمنيت كثيراً لو أخبره بحقيقتي لعله يتعاطف معي ويتفهمني، ولكني خفت أن يخيفه ما سيسمع كما أخاف الكثير من قبل، كم تمنيت لو أنه ينطق باسمي الحقيقي، فكلما نطق باسم رباب كنت أتذكرها وأشعر بالغيرة منها وكأنه يحبها هي ولست أنا، حتى أني كنت أغضب منه أحياناً بدون سبب، وحين يسألني أشعر بالخجل مما أفعله فأعاود الاعتذار والصمت، سيقولون أني صغيرة على الحب، ولكني لا أعترف بالأعمار، جل ما يهمني هو أني وجدت أخيراً من يحبني بصدق، والذي سيأتي يوماً أصبح فيه حرم فلان الفلاني.

حضر سعد ذات يوم كعادته وقد بدا على وجهه الحزن، فبادرته بالسؤال عن سبب هذا الحزن.

- لا شيء ولكن والدي يرغب بتزويجي لابنة عمي ..

- وأنت ما هو رأيك؟

- أنا لا أستطيع أن أقول لوالدي لا .. فأبي شديد العند..

- وماذا سنفعل؟ .. ماذا عني؟..

- أنا أحبك يا بت يا رباب .. وسأتزوجك حتى لو لم يوافق والدي..

- وكيف ستفعل هذا؟..

- سأسافر للبلد –القرية- غداً للتحدث معه.. حتى يأتي ويخطبك من إسماعيل أفندي..

- لا... يجب أن يأتي لخطبتي من المسئول عني عم أبو حسين .. ولكن أخبرني ماذا إن رفض ..

- سأحاول إقناعه يا رباب .. ادعي لي فقط ..

- هل تحبني حقاً ؟

- أكثر مما تتخيلين .. اسمعي هل أستطيع رؤيتك اليوم قبل أن أسافر.. فلا وقت للحديث هنا..

- لا أعرف .. ماذا سأقول لأم حسين؟

- أخبريها بأي شيء .. أنتِ أدرى يا رباب..

أخذت منه الأشياء وأغلقت الباب، وأنا أفكر في سبب مقنع أستطيع به إقناع أم حسين أن تتركني أخرج اليوم قليلاً، خاصةً أني بلا أصدقاء، وكما أني لا أعرف الكثير من الأماكن في القاهرة، أخذت أفكر وقتها حتى هداني عقلي إلى حيلة بسيطة وبالفعل نجحت، وخرجت يومها إلى حيث ينتظرني سعد على أول الشارع. أمسك يدي بدفء ثم بدأنا بالمشي بسرعة حتى لا يرانا أحد، أخذني يومها إلى إحدى الحدائق الجميلة، لم أكن أعلم بأن الحياة قد تفتح لي ذراعيها هكذا كما فعلت اليوم.

نظرت إليه بخجل ..

- سعد .. ماذا سنفعل؟

- في ماذا؟

- في موضوع زواجنا..

- لا تخافي يا رباب.. فأنا لن أتخلى عنكِ..

تضايقت مرة أخرى من اسم رباب ..

- لا تناديني برباب ..

- ماذا تريدين مني أن أناديكِ إذاً؟.. أليس هذا اسمك؟

صمت لبرهة، وأجبته بيأس ..

- نعم .. هذا اسمي..

لم أكن لأقوى على مصارحته بشيء، فاكتفيت بالصمت مجدداً.

- هل تعلمين يا رباب؟ .. أتمنى أن نتزوج ونعيش في غرفتي التي أجرتها.. أعود كل يوم من العمل لأجدك وقد جهزتي لي الطعام..

قاطعته بسرعة ..

- ولكني لا أستطيع الطبخ؟

- لا ..لا .. يجب عليكِ إذاً تعلمه .. فلن أقبل بزوجه لا تعرف كيف تملأ معدتي..

تضايقت منه، والتفت بعيداً وبحدة..

- إذاً لا تتزوجني ..

- هل تضايقتي؟.. أنا أمزح معك ..

ابتسمت، وعدت للنظر إليه بخجل..

- حسناً ..

- أخبريني يا رباب عن عائلتك ..

توترت قليلاً ثم أجبته ..

- كما أخبرتك مات والديّ في حادث .. فماذا تريد أن أخبرك أكثر؟

obeikan.com

- أريد أن أعرف قليلاً عن والديكِ.. أتعلمين أني لا أعرف اسم والدك حتى الآن..

أصابني الخوف وقتها، خفت أن أجيبه فيعلم ما أخفيه، حين تذكرت قلادة رباب والتي أخرجتها من جيبي لأريه إياها..

- هذه أمي .. انظر كم هي جميلة ..

- ألا تحملين صورة لوالدك ..

- لا ..

ثم واصلت حديثي مقاطعة لأي سؤال قد يبدأه ..

- لقد تأخر الوقت .. هيا بنا لنذهب ..

- بهذه السرعة.. لم نجلس كثيراً بعد ..

- لا بأس .. لا أريد أم حسين أن تقلق عليّ ..

استسلم لطلبي دون جدال، وفي طريق العودة اشترى لنا كوزين ذرة لنتسلى بهما. وعند مفرق الحارة سلمت عليه مودعة ..

- لا تنس أن تخبرني بما آلت إليه الأمور مع والدك ..

- حسناً .. ادعي لي فقط يا رباب..

وهكذا غادر سعد وعيناي تتبعانه كظله في حزن، كان خوفي من أن يستسلم لطلب والده كبيرا، كنت أخشى من فقده، وكنت أشعر بالغيرة

الشديدة من بنت عمه التي ظهرت لنا من العدم، لم تكن الأيام التي لم أر سعد فيها تمر بسهولة، فلقد كنت مشغولة البال، حائرة أكاد أجن من التفكير، حتى أن شرودي قد لفت انتباه أم حسين، التي بدأت تشير إلى غياب سعد بشكل غير مباشر، وكأنها تخبرني بأنها تعلم ما يدور في وجداني.

أشد أنواع الفقد ذلك الذي يأتي بعد طول حرمان، ذلك الذي يصاحب الشعور بصعوبة النسيان، فما أن نشعر بالحب لأول مرة، حتى نتمسك بآخر قطراته حتى الجفاف، متمنين أن يدق الحب أبوابنا كل يوم بلا استثناء، ليخبرنا بأن هناك من يشعر بنا.

* * *

(١٦)

مر أسبوع كامل من العذاب، حتى عاد سعد بابتسامته مجدداً، لم أصدق وقتها أنه قد كُتِب لي رؤيته مرة أخرى، اقترب مني كعادته وهو يعطيني الأغراض، وأنا بكل لهفه أسأله ..

- ها .. ماذا فعلت يا سعد؟

صمت قليلاً ..

- لقد أقنعت والدي أن ينتظر قليلاً .. وأخبرته أني لا أفكر بالزواج..

- ماذا؟!! .. وماذا عني؟

- يا رباب .. لقد حادثته كثيراً ولكن إصراره على تزويجي لابنة عمي جعلني أؤخر الموضوع قليلاً.. حتى أمتلك ما يكفيني فلا أحتاج لماله ... وبعدها يمكننا الزواج

صمت وقتها بلا إبداء أسباب أو حتى جدال، كنت أخاف أن أكذب نفسي وقلبي الذي بدأ الشك يطأ قدمه به، ولكني جاريت الأمور لأسباب عدة، لم أعرف أياً منها غير أني أحبه.

يقولون إننا في صغرنا نحمل بداخلنا براءة لا يمكن وصفها، ولكن ما إن نكبر تتحول براءتنا إلى سذاجة لا توصف، تتيح للكثيرين ممن فقدوا براءتهم مبكراً، أن يقوموا بخداعنا ونحن مازلنا نصدق.

ذات يوم استدعتني الست فوزية وطلبت مني الذهاب ببعض الأوراق للقسم حيث يعمل إسماعيل أفندي، وأعطتني النقود لركوب الحنطور وأخبرتني بالعنوان، نزلت من المنزل وركبت الحنطور الذي طلبت منه إيصالي إلى القسم.

نظر لي الرجل في البداية متعجباً...

- لماذا يا ابنتي؟ ماذا حدث للقسم؟ .. الصلح خير..

- لا شأن لك في هذا .. خذني إلى القسم ..

ضرب حصانه بالسوط معلناً انطلاقه وهو يهز رأسه قائلاً..

- لا حول ولا قوة إلا بالله..

الفضول هو المرض الوحيد الذي يقتل الإنسان، ما إن يصيبه حتى تعتريه حالة لا مبرر لها من البحث عن الإجابات، ولا يكتفي في الغالب بإجابة واحدة، فإجابة واحدة على سؤال تعني بأنك على استعداد للإجابة على جميع أسئلته، التي في الكثير من الأحيان تكون إجاباتها إجبارية وليست اختيارية.

توقف الرجل عند القسم، وبدون أن ينظر لي ..

- القسم .. أتفضلي..

obeikan.com

أعطيته المال وتوجهت إلى القسم، الذي ما إن رأيته حتى تذكرت أول مرة دخلت فيها قسم الشرطة في حياتي، حين تم القبض على والدي وخالتي وأتوا بي للتحقيق، شعرت لوهلة بالهلع حيث تراكمت كل الذكريات المؤلمة دفعة واحدة في عقلي، تقدمت بضع خطواتٍ ثم ترددت بالدخول، حتى أنني فكرت في العودة.

حتى نظر لي العسكري على الباب بنظرة شكٍ سائلاً...

- ماذا بكِ؟ ماذا تريدين؟

توقفت الكلمات في حلقي، وأخذت أبتلع ريقي بصعوبة ...

- أريد إسماعيل أفندي..

- من إسماعيل أفندي هذا؟ ليس عندنا أفنديات ..

- أقصد الأميرالاي إسماعيل ..

- آه .. ستجدين مكتبة في الدور الثاني إلى يمينك ..

تقدمت بعض خطوات وأنا أتلفت يميناً ويساراً لدرجة تثير الشبهات، كانت جدران القسم تذكرني بكل ما حدث، ذات الرائحة المقززة، وتلك الطرقات التي تعج بالسارقين والمجرمين، توجهت إلى حيث أخبرت، كان الباب وقتها مفتوحاً، نظرت للداخل لأجد إسماعيل أفندي مشغولا ببعض الأوراق،وما إن رآني حتى أشار لي بالدخول ..

- آسف يا رباب .. لقد أتعبتك .. لا أدري أين ذهب سعد الكلب ..

- لا بأس سيدي .. هل هناك شيء آخر؟

- لا أشكرك .. عودي أنتِ للمنزل ..

كان المكان وقتها كالطوق الذي يزيد ضيقه اختناقي، وبينما أنا أهم بالخروج سريعاً من المكتب، اصطدمت خطأً بمن زاد في رهبتي ورعبي، لقد كان الضابط الذي حقق معي في قضية عائلتي، تبادلنا النظرات بصمت، تمنيت بداخلي ألا يعرفني، قاطع نظراتنا إسماعيل أفندي بقوله ..

- ماذا فعلتي يا رباب؟ .. آسف جداً لك يا فندم تفضل بالجلوس..

- أصبحت نظراتي تتردد بينهما الاثنين، وبخجل ممزوج بالخوف ..

- آسفة يا بيه .. لم أكن أقصد ..

- نظر لي بتفحص ..

- لا بأس .. حصل خير ..

- اذهبي أنتِ الآن يا رباب .. وبلغي سيدتك بأني سأتأخر قليلاً اليوم ..

- حاضر ..

ما كادت قدمي تخرج من باب المكتب، حتى أخذت بالركض غير منتبهة لما أمامي، كنت أركض كالمجنونة أتخبط في الجميع، وأعتذر هاربة حتى خرجت من باب القسم، الذي استندت على جداره الخلفي لآخذ أنفاسي،

ثم أطلقت مجدداً قدمي للرياح، حتى استطعت ركوب حنطور إلى المنزل، حيث قابلتني الست فوزية ..

- ما الذي أخرك حتى الآن يا رباب؟

- لم أجد حنطورا إلى هنا

- هل سلمتي الأوراق لإسماعيل أفندي؟

- نعم .. يقول لك أنه سيتأخر اليوم قليلاً ..

- حسناً .. اذهبي الآن إلى المطبخ لمساعدة أم حسين ..

توجهت إلى المطبخ، وأنا أفكر فيما سيحدث، هل يمكن أن يكون قد عرفني أم أن الزمان قد ساعده على النسيان؟. ما إن دخلت المطبخ حتى نظرت لي أم حسين وكأنه استشعرت ما يحدث..

- لماذا وجهك أصفر يا رباب؟ هل رأيتِ عفريتاً؟

- تلعثمت قليلاً حتى استطعت إجابتها ..

- لا شيء .. كنت أركض بسرعة إلى هنا حتى لا أتأخر وتغضب الست فوزية..

- نظرت لي بدون اقتناع وعادت لعملها ...

- حسناً .. خذي البطاطس وقشريها ..

obeikan.com

أخذت صحن البطاطس ودسست رأسي به كأني مشغولة جدياً بتقشيرة، حتى أبعد قليلاً نظرات أم حسين التي ملأها الشك.

تمنيت يومها أن يمر الوقت بسرعة وأن أعود للمنزل، لا أدري أخوفاً كنت أشعر من أن تستيقظ هويتي السابقة التي لا أكاد أفلت من بين أنيابها حتى تعود للانقضاض عليّ أم لأني رغبت ببعض الوحدة التي أستجمع فيها بعضاً مني الضائع.

الماضي هو الشيء الوحيد الذي لا نستطيع الهروب منه، وإن استطعنا يوماً الهرب يلحقنا هو ويبحث عنا، كالشرطي الذي لا يترك مجرماً يفر بسلام، حتى لو أيقن بأنه مظلوم، لكل منا شموعه التي تعكس ظلاله، تلك الظلال التي تظهر مجدداً كلما اشتعلت شمعة جديدة بحياتك، كما الماضي، كلما جاءك الحاضر بفرصة للبقاء، جاء الماضي ليكون ظلاً مهدداً بزوالها.

* * *

(١٧)

مر الأمس بسلام، فما إن عاد إسماعيل أفندي حتى بدأت أراقب تصرفاته معي. لكنه في الحقيقة لم يختلف في طريقة تعامله معي، وهذا ما أراحني كثيراً وبعث بقلبي الكثير من الطمأنينة، فلم أكن لأتحمل ما سيحدث عن كشف هويتي الحقيقية، ومن الضياع الذي سيئول مصيري إليه.

أحضر سعد الأغراض كعادته، ولكن هذه المرة بدت عليه بعض أمارات الشك، وكأنه جاب الليل كله تفكيراً، طلب مني بصوت خافض أن ألقاه بالخارج بعد قليل، ولكن رغم محاولاتي لإقناعه بأن الموضوع صعبٌ جداً، إلا أنه أصر بشدة موضحاً ذلك بقوله ...

- هناك أمر مهم أرغب بالتحدث معكِ به .. موضوع يا "قاتل يا مقتول"

- هل سيرغمك والدك على الزواج ؟

- لا وقت للحديث هنا ... انزلي بعد قليل بأي حجة .. سأنتظرك بعد المنزل بقليل حتى لا يرانا أحد.

- كانت لكلماته تلك ما يثير الشك والحيرة، فما هو الموضوع المهم لهذه الدرجة، استأذنت من أم حسين أن أذهب لكنس حوش المنزل، وما إن أذنت لي حتى بدأت أركض نحوه لأطمئن قلبي الذي يكاد ينخلع من مكانه، اقتربت منه وما إن رآني، أمسك بيدي جاذباً إياي بقوة ...

- من أنتِ بالضبط ؟

- ماذا تقصد ؟ لا أفهم منك شيئاً...

- أخذ يهزني بقوة ...

- لقد عرفت كل شيء يا بديعة ..

ألجمتني كلماته التي أصررت معها على الإنكار ...

- بديعة من؟ .. أنا رباب .. سلامتك يا سعد ..

- لا تنكري لقد رآك الضابط بالأمس وتعرف عليكِ .. لقد سمعته وهو يتحدث مع إسماعيل أفندي بالصدفة ... طبعاً إسماعيل أفندي لم يصدق أنكِ قد تكوني هي لأنك قريبة أم حسين ولأن بديعة بنت ريا كما يعرف الجميع ماتت في حريق الملجأ.. وانتهى موضوعك هناك .. لكني تبعت الضابط وسألته عنك وحكي لي كل شيء .. كل شيء.. لم أصدقه حتى .. اعتقدت أنه قد يكون تشابه الشكل وأنه قد يكون ضيعك بعد كل تلك السنوات .. أخذت أبحث في الجرائد القديمة حتى وجدت لكِ صورة أكدت كل مخاوفي.. يعني أنتِ ابنة ريا وحسب الله .. أنتِ ابنة عائلة السفـ...

obeikan.com

وضعت يدي على فمه في محاولة لإيقاف حديثه .. فلم أكن لأستطيع سماع المزيد .. كانت جروحي قد فتحت وبدأت تنزف من جديد، وبدا لي الماضي كظلي الذي لن يفارقني أبداً، نظرت للأرض يأساً وبنبرة الحزن التي لن تفارقني ..

- وماذا بها إن كنت ابنتهم؟ .. ولكني لست مثلهم أقسم لك ...

- إذاً فالكلام صحيح وأنا لا أتوهم .. يا ليتك كذبتِ علي كنت لأصدقك ..أرجوكِ عودي للمنزل .. أرغب بالجلوس وحدي..

- لا .. لن أعود .. يجب أن تصدق أني لست مثلهم .. لقد عرفتني كل تلك الفترة.. هل رأيت مني ما يغضبك أو حتى يدل على كوني من ذات تلك العينة ؟.. صدقني أنت لا تعرف ما عايشته معهم .. لا تعرف مدى القسوة والجفاء الذي لاقيته منهم.. لم أختر أبي و أمي لكني اخترت أن أكون أنا أنا كما أنا عليه الآن .. ليس ذنبي أنهم عائلتي فنحن لا نختارهم بل نجدهم ما إن نخلق ولكننا نختار أنفسنا .. نحن من نصنعها ..

اكتفى بالاستماع لي بدون النظر، وكأنه يخاف أن يضعف ما إن يراني ..

- عودي للمنزل يا ربا... أقصد يا بديعة .. أعدك أني لن أخبر أحدا ..

- لا أهتم إن علم أحد .. جل ما يهمني هو أنت .. هل تصدقني؟

- عودي للمنزل الآن .. فلم أعد أعلم ما أنا بمصدق .. اذهبي الآن ..

عدت للمنزل وأحزاني تتكاثر عليّ بشكل يكاد يخنقني، قابلتني أم حسين بسؤالها عن سبب تأخري وإن كنت انتهيت من كنس الحوش، لم أجبها اكتفيت بالجلوس صامتة، لأنفجر بعدها بالبكاء بدون سبب، اقتربت مني المسكينة تحاول أن تعرف ما سبب بكائي، ولكني اكتفيت بالبكاء فقط، فالبكاء يغسل هموم الروح المعذبة، ولكن همومي لن يغسلها البكاء ولا حتى الغرق في مياه الدموع, كان شعور الفقد لدي يتزايد، خوفي من أن أفقد الشخص الوحيد الذي أعطاني الحب والعطف، جعلني أشعر بالخوف مجدداً بعد أن بدأت أشعر بالأمان قليلاً.

انتظرت اليوم التالي ردة فعله، كنت أنتظر منه أن يتركني ويرحل أو حتى أن يرفض الاستماع إلي مجدداً، ماذا كنت سأفعل؟ هل سأبكي بين أحضانه أطلب الرحمة، أم أرتمي تحت قدميه أطلب المغفرة، كنت أنتظر أن يرن جرس الباب كالطفلة تنتظر أن يأتي العيد، أتطلع للساعة كل دقيقة وكأن الوقت يأبى أن يمر عنداً فيّ، وما إن سمعت صوت أقدامٍ تصعد السلم حتى أسرعت أفتح الباب لأجد رجلاً غريباً يحمل الأغراض التي اعتاد سعد أن يحضرها، كم رغبت في السؤال عنه بشده، ولكني خفت .. نعم خفت أن أسمع الحقيقة، بأنه قرر نسياني والابتعاد عني. أخذت منه الأشياء وبقيت يومها شاردة، أبكي ليلي وأنوح بعذابي، لا أعرف إلى الراحة طريق، يبدو أنه قد كتب عليّ الشقاء طوال حياتي، ماذا لو قرر فعل ذلك وتركني؟ كيف سأعيش من غيره؟ هل يمكن أن ينسى كل هذا الحب بيننا؟. أسئلة كثيرة وأفكارٌ أكثر أخذت تتخبط في رأسي الصغير، الذي لم يعد يتحمل المزيد.

رغبت كثيراً وقتها في أن يسمعني أحدهم، أن يسمح لي بإخباره عما يكمن في قلبي. كم تمنيت لو أن حسين كبير قليلاً ليفهمني، كنت أخاف أن يقوده تفكيره الصغير إلى إخبار والديه بما يحدث، ربما خوفاً من أن يصيبني مكروه من وراء علاقة كهذه، أعلم أنه يحبني ويعاملني كأختٍ له، ولكن ما كنت لأجازف بإخباره خوفاً من أن يتسبب هذا في إبعادي عن سعد، في حين أني أحتاج للبقاء بقربه أكثر من أي وقتٍ آخر.

* * *

obeikan.com

obeikan.com

(١٨)

مر أسبوعان منذ لقائنا الأخير مررت فيها بكل ما يمكن تخيله من الحزن والتعب، حتى أني كرهت الطعام ونقص وزني بشكل واضح أثار تساؤل الجميع، كنت أحاول كتم سري الذي بدا واضحاً لأم حسين، التي ربطت غيابه بما يحدث لي، ولكني استمريت في الإنكار، خوفاً من أن أحرم منه للأبد، كان لدي أملٌ أن يعود يوماً ما، قررت يومها أن أسأل عنه ولو سؤال عابر، فصبري قد نفذ بمرور كل ذلك الوقت، الذي حاولت فيه إظهار عدم الاهتمام، حتى علمت بأنه قد حصل على إجازة للذهاب للبلد، وسيعود بعد ثلاثة أيام، ثلاثة أيام أضمها إلى كل تلك الأيام الماضية، ثلاثة أيام تزيد من حيرتي وتعبي وتساؤلاتي عن سبب الزيارة المفاجأة في وقتٍ كهذا، لطالما حيرني سعد بتصرفاته، ربما لأنه أكبر سناً وبالتالي فتفكيره سيكون أكثر تعقلاً من طفلةٍ مثلي.

عاد سعد وعادت معه بهجتي وسروري حين رأيته لأول مرة بعد غياب طال أسبوعين وثلاثة أيام، قابلته بابتسامة المشتاق بينما قابلني هو بجفاء وكأني غريبة .. لا يعرفني.

- ماذا بك يا سعد؟ .. لماذا ابتعدت؟ .. هل أصبحت تكرهني الآن؟ .. لماذا سافرت بدون أن تخبرني حتى؟

- ولماذا أخبرك ؟ من تكونين لي لكي أخبرك؟

لم تكن أذناي لتصدق ما تسمع، خفق قلبي بسرعة وكأنه على وشك الانفجار، وتساقطت الدموع من عيني كطفلةٍ نهرها والدها بشدة، وجدته يمد لي يده بمنديل قماش ..

- امسحي دموعك هذه ..

- وكأن دموعي تهمك الآن .. من أنا لكي تمسح دموعي .. ابعد منديلك فقد يتلوث بدموع بنت ريا التي أحبتك بصدق ..

- اعذريني .. ما زلت غير قادر على مسامحتك ..

- وما ذنبي أنا .. لو أنك سمحت لي بالحديث لأخبرتك بقصة حياتي المعذبة.. لو أنك فقط تسمع .. تركتني وأنا في أشد الأوقات حاجةً إليك ..

- لا تعرفين كم رغبت بسماعك .. لكن صدمتي بما عرفته أخافتني كثيراً ..

- أخافتك !!.. هل خفت مني؟ أم خفت ممن أنتمي إليهم؟

- لا أدري .. لم أشعر وقتها إلا بحاجتي للهروب.. ولكني لم أستطع ذلك.. فلن أستطيع الهرب منكِ للأبد ..

- إذاً اسمعني .. ربما تفهمني .. وتزول منك أي مشاعر أو أفكار قد تفرق بيننا..

- حسناً .. سأقابلك اليوم .. سأنتظرك على أول شارعكم كالعادة ..

سعدت كثيراً بقبول سعد الاستماع إلي، وكأن باب الرحمة عاد ليفتح لي من جديد، كعادتي وجدت ما أتحجج به للخروج لمقابلة سعد، رغم أنني لا أستطيع الكذب ولكني بدأت أبدع فيه منذ بدأته، التقيت سعد حيث ينتظرني على أول الشارع، وبدأنا رحلتنا المعتادة بين الحدائق والشوارع، قصصت فيها قصة حياتي كاملة بأدق تفاصيلها، وكأني أتحدث إلى نفسي في المرآة, كنت أراقب ملامح سعد التي كانت تتغير مع كل حرف يخرج من فمي، فتارة يشعر بالقرف وتارة بالحزن لأجلي، أخذت أتحدث وأتحدث حتى فاجأني بقوله ...

- هل تتزوجيني يا بديعة؟

لم أكد أشعر بسعادة في حياتي كلها، كما شعرت في تلك اللحظة التي صرخت فيها ..

- نعم .. متى ستأتي لتقابل عم أبو حسين؟

أطرق رأسه للأسفل، ثم نظر إلي ..

- أنا أرغب بالزواج بكِ.. لأني أحبك ولكني لست مستعداً حالياً لمقابلة عم أبو حسين.. فليس معي ما يمكنني من الزواج بكِ..

- إذاً وكيف سنتزوج ؟ ..

- سأتزوجك أمام الله .. وما إن أتمكن من توفير نقود للزواج .. سأتقدم وأتزوجك أمام الناس جميعاً.. فأنتِ الآن حبيبتي وزوجتي أمام الله .. أليس كذلك؟

- ولكن كيف لي أن أتزوجك أمام الله ولا أحد يعلم بذلك؟

- يمكننا العيش كزوجين .. نلتقي خفية من وقتٍ لآخر .. حتى يحلها الله من عنده..

صمت لبرهة بدت كالأبد لي، وبدوت في حيرة لا نهاية لها، فإن عارضته سيتركني لأعاني ما عانيته فترة غيابه، وإن وافقته سأعيش العمر كله مع من أحب .. بجانبه ولكن أمام الله فقط زوجة وأمام الناس عاهرة، نظرت إليه أتأمل ملامحه التي بدت على استعداد لسماع موافقتي..

- لكن هذا حرام .. أليس كذلك؟

- حرام ماذا؟ أنتِ مع من تحبين ولن يعلم أحد بحالنا هذا غير الله.. ثم يبدو أنكِ لا تثقين بي يا بديعة.. حسناً إذا كنتِ لا تثقين بي فلنفترق ويمكنك الزواج بأول من يأتي ليتقدم لعم أبو حسين..

شعرت بالخوف ما إن سمعت كلمة فراق، فلم يعد لدي القدرة على الفقد مرة أخرى، يكفيني فقدان أمي وصديقتي الوحيدة رباب، أمسكت ذراعه في ترجي ..

- لا .. لا تقول هذا يا سعد .. أنا أثق بك .. وأحبك..

- إذاً ستفعلين ما أقوله لك بدون جدال .. أنا الآن زوجك ووجب عليكِ طاعتي ولا تكسري لي يوماً كلمة .. فهمتي ..

- أثارت كلمة زوجتي بداخلي كماً من السعادة، وكأن العالم كله كان يبتسم لي وقتها، وميض الحب أخذ يلمع بعيني وأنا أجيبه بخجل ..

- حسناً .. يا زوجي ..

اتفقنا على الالتقاء يوماً من كل أسبوع حسب الظروف، ينتظرني على أول الشارع لكي نتوجه بعدها إلى بيتنا حيث يقطن، بيتنا.. أخيراً أصبح لي بيتاً أشعر فيه بأني ملكته كالست فوزية، أنظفه وأعتني به، حتى أني بدأت التفكير في تعلم الطبخ من أجله، فكيف لزوجة سعد أن لا تتقن فن الطعام، وربما هذا ما أثار شكوك أم حسين حولي أكثر، برغم أني حاولت إقناعها بأني أفعل ذلك لمساعدتها، ولكنها ما فتأت ترمقني بنظراتٍ غريبة ما إن تراني مع سعد، حتى أنها بدأت تسألني عن سر حديثي المتكرر معه، مشددة عليّ بأن أبتعد عنه، كثيراً ما كنت أجد عذراً لحديثنا حتى صارحته بشكوك أم حسين، مما دفعه للطلب مني أن أتوقف عن الحديث معه، وأن نكتفي بحديثنا ما إن نلتقي.

* * *

obeikan.com

(١٩)

مرت سنة على زواجي من سعد، عشت خلالها كل مشاعر الحب والاحتواء التي أغدق سعد عليّ بها، لدرجة أني كنت أخاف من حدوث أي شيء قد يتسبب في فراقنا. ولكنا الأمور مرت بسلام حتى اللحظة التي جاءني فيها عم أبو حسين يحدثني فيها عن الأسطى عبده الميكانيكي، الذي تقدم لخطبتي وأعطاه عم أبو حسين موافقة مبدئية على الموضوع حتى يسألني، طبعاً وقتها أنصبت علي الضغوط من كل جهة للموافقة، ولكني بدأت أماطل حتى أتحدث مع سعد بخصوص هذا الموضوع، فكيف لي أن أتزوج رجلاً آخر غير زوجي سعد؟، انتظرته يومها لكي أخبره بما حدث، لم يبد عليه أي معلم من معالم الخوف أو القلق، واكتفى بقوله إننا سنتحدث بالموضوع حين نلتقي اليوم.

معالمه المتجمدة حركت بداخلي مشاعر القلق، فلم أكن لأتوقع منه ردة الفعل هذه، اعتقدته سيغضب ويثور صارخاً أنتِ لي، هل يمكن لسعد أن يغدر بي تاركاً إياي أواجه هذا الموضوع لوحدي؟. كنت أعد الدقائق يومها لكي أنتهي من العمل وأذهب للقائه، وجدته حيث كان ينتظرني، لم يمسك بيدي هذه المرة كعادته بل اكتفى بالمشي أمامي تاركاً إياي أتبعه في صمت، وصلنا منزله، تقدمني بفتح الباب والدخول، سابقاً إياي

بالجلوس على السرير حيث اعتدنا النوم والجلوس، فلم يكن بيتنا غير غرفة بحمام ومطبخ صغيرين.

أشار لي بالجلوس بجانبه، فنظرت إليه بنظره تقدح شراً صارخة ..

- ليس هذا الوقت المناسب لما تفكر به .. أنا الآن في ورطة كبيرة .. فعم أبو حسين مصمم على زواجي من الأسطى عبده .. قائلاً إن هذا الزواج ستره لي .. يجب أن تحضر لخطبتي والزواج مني أمام الناس .. ألست زوجتك يا سعد؟ هل ستتركني لرجل آخر؟

- ألقى نظرة خاطفة إلى معالم وجهي ثم أطرق برأسه ..

- أنا لست جاهزا الآن للزواج بك يا بديعة..

- ماذا؟ وماذا عليّ أن أفعل الآن ؟.. هل ستترك الناس يدعونني بالعاهرة..

- لا .. لا تقولي هذا .. ولكن عليكِ الموافقة على هذا الزواج؟

- هل ستدعني أتزوج رجلاً آخر؟ وإن كان كيف له أن يتزوجني بعد .. بعد ما حدث بيننا..

- افهميني يا بديعة .. موافقتك ما هي إلا تأخير فقط للموضع حتى أجمع المال وأتقدم لكِ .. وفي ذلك الوقت يمكنك رفضه بأي حجة .. المسألة مسألة وقت فقط لا غير..

أسكتتني وقتها قلة الحيلة، فلم أكن لأثير معه حديثاً قد ينهي علاقتنا بكلمة، ربما لو كان لي عائلة أفتخر بها أمام الجميع، لما كنت ارتميت في أحضان الغرباء ممن يلقون لي الحب فتاتاً آكله، فلو تزوجت بالأسطى عبده لن تكون صدمته صدمة واحدة بل صدمتين، صدمة أن يجد زوجته امرأة وليست فتاة عذراء وصدمة أن يعلم بأن عائلتها من عائلة الوسط الغير محترم .. وسط المجرمين والقتلة، هل كان ليتحملني كم تحملني سعد؟ هل كان ليرضى بي كما رضي بي سعد؟. يكفيني أني شعرت حينها بالخضوع لكل ما هو قد يفرض عليّ سواءً من سعد أو عم أبو حسين، الذي ما كنت لأعارضه بعد ما احتضني – لمني – من الشوارع.

تمت الخطبة التي أسكتت كل شكوك أم حسين، وأشعلت الفرح بالمنزل، كان الجميع سعيداً بهذه الخطبة إلا أنا، أنظر للجميع وكأني فتاة قد أرغمها والديها على الزواج من رجلٍ لا تحبه.. وأنا لا أحبه فعلاً. كل فتاة قد تسعد بهذه اللحظة إلا أنا، ربما لو لم أعرف سعد لكنت سعيدة حينها، حدد موعد الزفاف بعد شهرين فلقد كان الأسطى عبده "كسيب" على كلام عم أبو حسين، لم ينقصه شيء غير بنت الحلال.. بنت الناس الطيبين .. فتاة محترمة، بنت الحلال هذه هي الصفة الوحيدة التي أقسم إنها حقيقة، فلقد جئت ثمرة زواج بقسيمة رسمية على سنة الله ورسوله، أما باقي الصفات فأعتقد أنها لا تمت لي بصلة.

عندما نرغب في شيء بسرعة، نجد كل شيء يبطئ كأنه يحاول إعاقتنا عن الحصول عليه, وعندما لا نرغب به، نرى الأمور تنعكس فالوقت يمر بسرعة والأمور تزداد سهولة بشكل غير متوقع، وكأن العند يولد معه الصبر، والصبر لا يجد مكاناً له في الأوقات التي نحتاج فيه إليها.

مرت المدة المحددة، وها هم يزينون المنزل ويعلقون الأنوار، والكل يبارك لعم أبو حسين والأسطى عبده، وأنا أبكي في الغرفة، لا أعرف سبيلاً للهرب، سعد قد تخلى عني في هذا اليوم، الذي وعدني بأنه سيأتي فيه ليقابل عم أبو حسين منهياً هذه المهزلة التي أنا بها، تأخر عن موعده الذي حدده، وساورني الشك منه، فأخذت أول حنطور إلى حيث كنا نلتقي، وجدته بالمنزل جالساً يستمع للراديو، وكأن شيئاً لم يكن .. وكأنه لا فتاة هناك في انتظاره لينقذها من براثين العهر والفضيحة، توجهت نحوه ثائرة، وما إن اقتربت منه حتى بدأت في البكاء..

- لماذا لم تأت يا سعد؟ .. هل يرضيك أن أفضح في حارتنا؟ .. ألم تعد تحبني؟

- أدار وجهه بصعوبة نحوي، وبكل برود العالم أجابني ..

- اسمعي يا بديعة أنا لست مستعداً للزواج بك وقد شرحت لك الأسباب مسبقاً..

- وماذا عليّ أن أفعل الآن؟ .. ليس بيدي حيلة غير أن أقتل نفسي ..

- الحل الوحيد هو أن تهربي.. وتأتي للعيش معي .. اتركي الزفاف والعريس الذي أحضروه لكِ .. وعيشي معي هنا بالمنزل..

- أعيش بصفتي ماذا؟ .. عاهرتك ..

- لا .. زوجتي ... سأخبر الجميع بأنك زوجتي ..

- عادت ابتسامة السعادة إلى روحي المتعبة ..

- هل ستتزوجني ؟

- لا ..

- ولكن كيف ستخبر الناس بزواجنا .. ونحن غير متزوجين ..

- عن أي ناسٍ تتحدثين؟

- عائلتك .. عائلة أبو حسين .. الناس ..

- اسمعي سأخبر أهل الحارة هنا بأنك زوجتي التي جاءت من الصعيد للسكن معي .. حتى لا يتسبب بقاؤك هنا في مشاكل لي .. لكن غير هذا لن أخبر أحدا.. وإن لم يعجبك ما أخبرك يمكنك العودة للأسطى عبده ..

"استسلمي" هكذا ردد الكلمة شيطاني الصغير، "لا يوجد حل غير هذا" هكذا هداني عقلي الذي بالكاد يستطيع التفكير، كروحٍ مجهدة وكفتاة منكسرة أصبحت في عداد النساء، بلا روحٌ بريئة ولا جسدٌ نقي خضعت لسعد، تاركة كل شيء ليتحطم من خلفي، رادة الجميل لعائلة حسين بالغدر، بعد أن ضموا فتاة لا يعرفونها إلى أحضانهم وأسكنوها منزلهم وأطعموها من طعامهم.

* * *

obeikan.com

(٢٠)

ستة أشهر مضت، ذاع فيها خبر هروب إلى أحضان رجلٍ لم يتم التعرف عليه، كان الجميع يبحث عني، حتى أن أبو حسين قدم بلاغاً باختفائي حمل اسم رباب، لم أعلم يوماً بأنهم كانوا يحبونني لهذه الدرجة، الدرجة التي جعلت مني ابنتهم التي لم ينجبوها يوماً، حتى أن أم حسين سألت سعد عني، في محاولة لجعله يتحدث إن كان هو من هربت إلى أحضانه، ولكنه نفى بكل برود، وكأنه لا يعرفني. مع الأيام فقدوا الأمل في إيجادي، و توقفوا عن البحث عني برغم ما سببته لهم من مشاكل وخزي في الحارة، كم تمنيت لو أنني صارحتهم بما حدث، ولكني لم أعلم يوماً بأنني ذو قدرٍ كما علمت الآن.

عرفني الجميع في حارة سعد بأنني زوجته القروية، التي أتت لتشاركه حياة المدينة، برغم سعادتي من احترام الناس لي كزوجة أحدهم، إلا أنني كنت بداخلي أحتقر نفسي وأدفعها ألا تصدق هذه الأوهام، فربما يأتي يومٌ لا تصبح فيه أحدا، وقد ينقلب من يحترمونها إلى أشخاصٍ يرجمونها بالحجارة.

قضيت أياماً جميلة وأخرى سيئة، ولكن الحياة لا تدوم على حال، وهكذا هي الحياة الزوجية كالأسهم يوماً تشير لأعلى ويوماً تشير للأسفل، ربما كان أجمل يومٍ قضيته في حياتي، ذلك اليوم الذي ذهبنا به للسينما

لمشاهدة فيلم "ليلى" والذي تم إنتاجه عام ١٩٢٧. الذي قامت بتمثيله عزيزة أمير، كانت قصة الفيلم أشبه بقصتي فأنا وقعت في الخطيئة بسبب الحب، فهل سيأتي يوماً تسرق مني امرأة أخرى هذا الحب؟. اتسعت عيناي أمام شاشة السينما الكبيرة، تأملت كل مشهد مر في الفيلم بحزن وكأني أنا من أمثله، برغم سعادتي بأول تجربه لي، أقضيها في السينما، ذلك المكان الحالم الذي يخلق الإبداع. إلا أنني كنت أشعر ببعض الغصة، التي وصلت للشرود.

اعتاد سعد تركي في الصباح للذهاب إلى العمل، بينما كنت أنظف المنزل وأذهب للسوق لشراء الخضار لتحضير وجبة الغداء، وذات يوم وأنا منهمكة في تحضير وجبة الغداء، دق باب المنزل فذهبت أسأل من خلف شراعه الباب عن الطارق، لقد كان فتحي صبي المكوجي يخبرني بأن هناك من يتصل بسعد من القرية، أخبرته بأن سعد غير موجود، فأخبرني بأن الرجل المتصل يقول بأن الموضوع مهم، تركني فتحي ونزل، واتجهت أنا نحو شالي ألفه حول جسدي، وتبعته للأسفل حيث عم مصطفى البقال، أخذت سماعة الهاتف المتروكة هناك على منضدة البقالة وبدأت الحديث ..

- ألو ..

- نعم يا سعد ..

- أنا لست سعد يا عم الحج ..

- من تكون إذاً؟

احترت في إجابته هل أخبره بمن أكون لننتهي من هذا الموضوع، أم أكذب حتى لا يتم طردي للشارع.. أخفضت صوتي قليلاً ..

- أنا جارته .. وسعد في العمل .. هل هناك أمر ما؟

- نعم يا ابنتي .. أرجوكِ أخبري سعد عندما يعود بأن يأتي للقرية فوراً..

- لماذا؟.. هل هناك خطبٌ ما؟ .. هل أنت بخير؟ .. هل الحاجة بخير؟

- نعم يا ابنتي كلنا بخير .. ولكن زوجته على وشك الولادة .. والطبيب يقول إن الولادة متعسرة ..

أتتني كلمة "ولادة" وكلمة "زوجته" كصفعتين متلاحقتين على وجهي، وهمست لنفسي..

- ولادة .. هل سعد متزوج؟

قاطعني كلام والده ..

- ألو .. لا تنسي أن تخبريه يا ابنتي ..

- حسناً يا عم الحج .. ما إن يأتي حتى أخبره .. لا تقلق .. إن شاء الله سيعينها الله وتقوم بالسلامة ..

- يا رب يا ابنتي ..

انتهت المكالمة وانتهت معها وصلات الكهرباء التي تساعد عقلي على التفكير، وبشرود الصدمة تركت الهاتف بدون إغلاق السماعة،

وعدت للمنزل لأجلس على كرسي الإعدام الذي تمنيت لو أحصل عليه.

- سعد متزوج .. ولديه أطفال .. لهذا لم يرغب بالزواج بي؟ .. لماذا يتزوج وهو متزوج؟.. كان يكذب عليّ كل هذه الفترة.. متى تزوج وأنا لا أفارقه ليلاً أو نهاراً .. حتى أيامه التي يقضيها بالقرية لا تتعدى الليالي الثلاثة ..

هكذا أخذت أحدث نفسي كالمجنونة، ولو أن المجنون أكثر عقلاً مني لفهم بأني قد خدعت، تماماً كما حدث لليلى، بطلة الفيلم الذي لم يكن غير واقعٍ يتجسد لي، كنت أنتظر سعد، انتظاراً طال وقته، لا انتظار المحبين، بل انتظار المنتقمين الثائرين، حتى أني نسيت الطعام على البابور، حتى احترق وفاحت رائحته بالمنزل مخلفاً سواداً شديداً كالذي بداخلي، جاء سعد على مهل وقبل أن يغلق باب المنزل، تقدمت نحوه كالعاصفة القوية أسأله عن حقيقة زواجه.

التفت إلي وبذات البرود الذي اعتاده، والذي يقتلني ..

- وماذا في ذلك؟ .. أخبريني أولاً من أين عرفتي ذلك؟

- اتصل والدك و....

ارتعدت أوصاله خوفاً، وتوجه نحوي يمسك بي بقوة ...

- والدي؟ .. ماذا أخبرتيه؟ .. انطقي ..

- لا تخف لم أخبره بحالنا المخزي .. اكتفيت بأن أكون جارتك اللطيفة التي تجيبه لكونك غير موجود..

تركني ملتفتاً للخلف، محاولاً خلع ملابسه ..

- وماذا أخبرك؟ .. ماذا كان يريد؟

- يقول إن زوجتك تلد .. وإن ولادتها متعسرة ويطلب منك النزول للبلد..

عاد لارتداء ملابسه مجدداً، هاماً بالخروج، حين أمسكت به بسرعة..

- أين ستذهب وتتركني؟ ..

- سأذهب الآن للبلد ..

- إذاً الكلام صحيح متزوج ولديك أطفال.. كيف حدث كل هذا وأنا نائمة؟

- لقد تزوجت بعد أن اكتشفت حقيقتك في الفترة التي سافرتها للبلد ..

- وماذا عني؟ .. تلك التي سلمتك نفسها وقلبها .. وتركت الناس لأجلك..

- لم أضربك على يدك يا بنت ريا .. احمدي الله أنكِ ما زلتِ معي .. لو شخصاً آخر لقام برميك في الشارع حيث تنتمين ..

obeikan.com

- لا أصدق ما أسمع .. هل أنت سعد الذي أحببته؟ .. وماذا عن حبك لي؟

- لا أنكر بأني كنت أحبك في البداية .. ولكن علاقتي معك تنتهي بالسرير فقط .. أما أن تكوني زوجتي فهذا محال .. أنسيتي من أنتِ يا بنت ريا.. كيف كنت سأخبر والدي عنك.. احمدي الله أني لم أفضحك عند العائلة التي احتضنتك من الشارع... أتعلمين لكانوا أعادوكي إليه مرة أخرى.. كما سأعيدك الآن .. لا أريد أن أراكِ حين أعود من البلد..

خرج وأغلق الباب بقوة وكأنه يصفعني، صدمتني أسقطتني أرضاً وكأني لم أسقط بعدّ حين سلمت جسدي للعهر، "بنت ريا" كم تعيد هذه الكلمة الكثير من الذكريات، التي جاهدت على نسيانها بكل ما أستطيع، يبدو أن الماضي لا يموت بموت ساكنيه، فهو يعيش معنا بأرواحهم التي تطاردنا في كل مكان, صدق بقوله أني جئت من الشارع وها أنا أعود إليه، فتاة شارع.

* * *

(٢١)

جمعت أغراضي في قطعه قماش صغيرة، واتجهت إلى حيث كتب عليّ البقاء.. إلى الشارع، الذي يحتضن من لا أهل لهم .. من لا حبيب يضمهم .. من لا منزل يحتضنهم.. من ضيعتهم قلوبهم قبل عقولهم، بدت شوارع القاهرة كبيرة ومخيفة على غير العادة، فكرت كثيراً بالعودة إلى منزل أبو حسين ولكن بأي وجهٍ ذلك الذي سأقابلهم به، كيف لوجهٍ ملأه العار أن ينجس منزلاً، كان طاهراً وما زال، يكفيني أن نجسته مرة بدخولي فيه أول مرة، اتخذت الشوارع مأوىً لي، أنام بجانب المساجد، حيث يمطر عليّ المحسنين بكرمهم. أتلحف ظلام الليل، آخذة الأرصفة سريراً لي، وقناديل الشارع ضوءًا يحرسني في المساء، وبرغم صدر الشارع الواسع، إلا أن صدور بعض البشر كانت أضيق منه، فما زلت أهرب من كل عسكري في الشارع، يرفض بقائي فيه.

ظللت على هذا الحال لشهورٍ عدة، عرفت بعدها باباً جديداً يبدو أكثر أماناً وراحة؛ ألا وهو مشاركة الأموات مساكنهم، حتى الأموات بدوا أكثر كرماً من الأحياء، فلم يتذمروا يوماً من مشاركتنا لهم أماكنهم، ومن أكلنا مما يوزعه أقرباؤهم رحمةً عليهم. بل بدوا وكأنهم يستأنسون بوجودنا بجانبهم، لن أخفي خوفي في البداية منهم، ولكن الحياة بينهم كانت أقل خوفاً من الحياة بين الأحياء.

لم أكن أحاول التقرب ممن يشاركونني العيش مع الأموات، واكتفيت بالنوم والحياة بجانب أحد القبور القديمة التي لا يزورها أحد، أعيش على معونات الطعام التي يحضرها أقارب الموتى كل جمعة أو كل موسم، ما إن يهلوا حاملين أطعمه حتى نجتمع حولهم كالذباب نتخاطف الطعام من بين أيديهم، وياله من طعامٍ لذيذ على اختلاف مستوياته، فمنهم من كان يحضر الفطير المعد بالسمن البلدي، وآخر يوزع كعكاً وأخرى توزع فتة ولحماً، وهناك من كانوا يوزعون ساندويتشات الفول والطعمية أو السميط والدقة, كنت أحمد الله على نعمته، فلم أنم يوماً جائعة، فلقد كنت أقتصد في طعامي حتى يكفيني، ومرت الأيام وأنا على هذا الحال رغم شقاؤه، حتى جاءتنا الست أزهار، وهذه لها قصة طويلة، بدأت منذ أن حضرت للمدافن لتوزيع الحم والفتة على الفقراء، رحمة على أحد الميتين الذي توسمت أن تكون والدتها، ما إن رأتني يومها حتى أشارت لي بأصبعها وهي على الحنطور تراقب صبيها يوزع الطعام.

- ما هو اسمك؟

- اسمي .. اسمي..

ضحكت ضحكة عاهرة ثم أكملت ..

- ماذا نسيتي اسمك؟

- لا .. اسمي بديعة ..

- بديعة .. دوري يا بديعة أمامي ..

أخذت أدور أمامها حتى اعتقدت أني سأسقط من الدوخة، حتى أمرتني بالتوقف..

- جسدك جميل يا بديعة .. ما رأيك في العمل معي وترك هذا المكان الموحش ؟

ترددت قليلاً قبل أن أسألها ..

- أعمل .. وماذا لي أن أعمل معك؟

- سأخبرك لاحقاً .. ولكن كل ما أستطيع إخبارك به هو أنك ستأكلين الشهد – على حد قولها- من وراء هذا العمل ..

نظرت خلفي إلى المكان، وإلى البقية المشغولين في تخاطف الطعام .. ثم نظرت لنفسي وقد اعتلاني التراب، وهمست لنفسي ..

- أكيد ستجعلني خادمتها .. وماذا في هذا؟ .. قد أجد سقفاً يأويني .. بدل النوم في الشارع..

وافقتها الرأي، وسعدت لأجلس بجانب سائق الحنطور، أشارت هي لصبيها أن يترك الطعام ويأتي، ثم انطلقنا إلى منزلها الكائن بشارع محمد علي، ما إن دخلنا الشقة حتى تقدمتني الست أزهار، تدعوني للدخول , دخلت المنزل الذي كان ممتلئاً بالنساء من كل شكل ولون، تأملت أثاثه الذي بدا عليه الفخامة برغم صغر حجم الشقة، نظرات تبادلتها مع القاطنين بها، اختلفت عن بعضها، فبينما أنا أنظر إلى ثيابهم الضيقة التي بالكاد تغطي أجسادهم، كانوا ينظرون إلى ملابسي المعبئة بالتراب

ووجهي الذي لم تظهر ملامحة من الاتساخ، أشارت الست أزهار لإحداهن قائلة ..

- خذيها يا فيفي ونظفيها .. وخذي قطعة القماش هذه وأرميهم في القمامة..

- ماذا؟ قمامة!! .. ملابسي ..

- لا بأس .. ستعطيكي فيفي ملابس جديدة أفضل من ملابسك .. اذهبي معها الآن يا بديع وسنتحدث لاحقاً .. ولا تنسي يا فيفي إطعامها أيضاً..

تبعت فيفي - كما تسميها- إلى الحمام حيث تركتني لأستحم، خلعت ملابسي وأنا أتأمل الحمام الذي لم يقل جمالاً عن حمام الست فوزية، وما إن انتهيت حتى ناديت عليها لتحضر لي ملابس، دقائق حتى عادت وبيدها بعض الملابس التي احترت حقاً في كيفية ارتدائها. فلقد كانت قصيرة، وبدون أكمام وفي الغالب يبدو عليها أنها ممزقه، فكيف سأرتدي ملابس كهذه، ناديتها مرة أخرى وطلبت منها أن تحضر لي شيئاً من أغراضي، ولكنها أجابتني بأن ملابسي قد تم إعطائها لبياع الروبابكية, وطلبت مني أن أرتدي ما أحضرته لي، اضطررت لارتداء ما وجدته وخرجت من الحمام وأنا أحاول تغطية ما ظهر من جسدي ولكن بدون فائدة.

نادتني فيفي وطلبت مني الدخول إلى غرفة الست أزهار، التي كانت تجلس بجانب المشربية تتجرع الشيشة، وقد بدا عليها أنها كبيرة المكان الذي تديره، أشارت لي بأن أجلس على قطعه صغيرة من الأثاث دائرية الشكل،

ابتسمت الست أزهار وهي تراني أحاول تغطية ما قد بدا مني وأنا أحاول الجلوس.

- ماذا تفعلين يا بديعة؟

- هذه الملابس لا تبدو مناسبه لي .. فهي قصيرة جداً..

- دعكِ من موضوع الملابس الآن .. أخبريني يا بديعة .. ما قصتك؟ .. وما الذي أدى بكِ إلى العيش بين الأموات؟

ارتبكت قليلاً، والإجابات بدأت تتدفق لعقلي بسرعة لدرجة أني لم أستطع النطق، وكم من الأسئلة والتحذيرات التي يمليها عليّ عقلي وهو يحذرني من قول الحقيقة. لذا قررت إخبارها نصف الحقيقة التي تبدأ من حيث حياتي مع عمي أبو حسين والتقائي بسعد إلى نومي بالشارع، مقتطعة ماضي السابق بالكامل أملاً في عدم ظهوره مرة أخرى، هزت رأسها لي ما إن انتهيت، ثم ابتسمت ..

- إذاً أنتِ لستِ ...

كان سؤالها واضحاً، وكان صمتي إجابة كافية ..

- اسمعي يا بديعة .. أنا أعمل فنانة أرقص في المساء بالكبارية وأكمل سهرتي مع الزبائن بالمنزل.. تأتينا أحياناً أفراح ومناسبات لشخصيات مهمة، أقوم بالرقص فيها مقابل مبالغ مالية طائلة، فكما سترين أنا لست كأي راقصة، فما رأيك بالعمل معي في الكباريه؟.

- وماذا سأعمل في الكباريه؟

- عمل بسيط جداً .. ستعملين راقصة خلفي .. وقد أعطيكي فقرة لو أجدتي عملك .. وما إن تنتهي يمكنك الجلوس مع الزبائن والشرب..

- شرب .. شرب الماء .. ولماذا أشرب معهم الماء؟

ضحكت ضحكتها الرقيعة ..

- ماء .. ماء ماذا يا حبيبتي؟ .. ستشربين الشمبانيا والمشروبات الفاخرة..

- أتقصدين الخمر ؟!!

- وهل هناك ما يشرب غيره في أماكن كهذه؟

لا أدري لماذا تذكرت خالتي سكينة، حين كانت تعاقر الخمر باستمرار، فلم تكن زجاجة منقوع البراطيش تبتعد عن يدها، عادت لي ذكريات كثيرة تدور حولها وحول عملها كعاهرة ، عن كم الرجال الذين كانت تحضرهم إلى منزلها، ليعاقروا الخمر معاً ويكملوا سهرتهم، بين كل تلك الذكريات، تبادر لذهني سؤال مفاجئ، هل بدأت في التحول إلى خالتي سكينة؟. هل يجب أن أمثل جزءًا من عائلتي المنحطة، وأيهما أفضل أن أكون قاتلة أم عاهرة؟. لم أفضل القتل يوماً، فخروج الروح من الجسد على يد أحدهم هي أبشع المناظر التي قد يراها إنسان, كما أني لم أفضل يوماً أن أكون عاهرة، رغم أني قد تحولت لذلك على يد سعد، ولكن يا ترى أي طريقٍ أسلك طريق الشارع، أم طريق الست أزهار؟

* * *

(٢٢)

قد أكون إنسانة ضعيفة أو ليست ذات قيمة، ولكن لم يكن أمامي خيار آخر، فكلاهما شارع مليء بالأتربة والأوساخ، وكلاهما مليء بالوحل والأشواك، فكيف لي أن أهرب من قدرٍ بات يلاحقني، لطالما كرهت خالتي سكينة، وها أنا اليوم أمشي على خطاها القذرة محملة بالأوزار، يزداد عمري كبراً، كلما ازدادت ملابسي قصراً، حتى لم أعد أشعر حين أكون عارية بأني عارية، أضع على وجهي كل مساء كمية من الألوان التي تثير البهجة في نظر من يراني، بينما أنا أخفي خلفها قناع الحزن الذي يلازمني، كم تمنيت أن أعيش حياتي كفتاة عادية، تمنح الأيام روح السعادة، النقاء والحب، وآهٍ من الحب الذي ضيعني مراتٍ عدة بفقدانه وركضي خلفه، ربما يكون هذا جزاء من يركض خلف الأشياء فلو أننا نتركها تركض خلفنا يوماً، ربما لكنا حصلنا عليها بدون أن نشعر بالتعب وبدون أن نقدم تنازلات.

مرت عدة أعوام، تغيرت معها كما تغير العالم من حولي، أصبحت أكثر تلوثاً كما أصبح العالم الذي تواجدت به، لم يكن الصباح غير زائرٍ يزور نافذتي كل صباح. لم أعد أراه أو ألتقي به، كان يكفيني أن أعلم بأنه قد أتى وذهب، أما الليل فقد كان رفيق الدرب، الذي يخفي بسواده التلوث الذي يعمي الأبصار، أصبحت الراقصة رقم واحد بالنسبة للست أزهار،

فكانت تفرط في تدليلي وإعطائي ما أريد من مال، حتى أنها لم تكن تجبرني على شيء، كانت تتركني لمزاجي -على حد قولها- لفعل أي شيء.

كنت أرى وجوهاً لا أدري هل أشفق عليها أم أحتقرها؟، صحيح أنها بدت متشابهة في البداية، ولكن مع الخبرة أصبحت أفرق بين كل وجه ووجه، فكثير ارتدوا الأقنعة واستطاعت التشبث بهم، بينما سقطتْ أخرى في لحظة ضعف أو حتى قوة، أتذكر يوماً أتاني رجلٌ يبكيني حباً تحت قدمي، شعرت حينها بأن كلمة الحب لم يعد لها معنى يذكر لي، فالحب لدي الآن يعني المال والسلطة، يعني التحكم بقلوب الآخرين كما أفعل الآن, كثيراً ما كنت أشعر بالتقزز من نفسي، كثيراً ما كنت أسخط هذه الحياة. كنت أشتاق أحياناً للشارع والنوم في القبور، حتى تزجرني نفسي بسخرية ...

- أنتِ وجه فقر ..

حتى نفسي باعتني ووقفت ضدي، فقد وجدت في هذه الحياة الضيقة حياة رغيدة تنعم بها، لم يجمع بار الكبارية غير حثالة الشاربين، أو لعلي لا أظلمهم فأنا من تلك الحثالة التي اعتادت مشاركتهم الشرب, أتاني يوماً الخواجة ميشو أحد ساكني مقاعد البار ليجلس بجانبي، اعتدت الجلوس معه للحديث، كم كان يملك هذا الرجل بداخله من إنسانية تخدرت مع كل كأس يشربه، كانت مشاكله تدفعه لفعل كل شيء عدا نسيانها، كنت أشفق عليه أحياناً وأمل منه أحياناً أخرى.

تلك الليلة وبعد انتهاء وصلة الرقص الخاصة بي، جلست كعادتي على البار أنتظر زبوني الذي سيدفع أكثر لإرضائي ،اقترب مني ليلتها الخواجة ميشو وبصوتٍ مليء بالسكر ..

- هل تعلمين يا بدعدع كم أنتِ جميلة اليوم؟

- اليوم فقط يا خواجة..

- لا الحق يقال أنتِ جميلة كل يوم .. تشبهين إلى حد كبير ابنتي جورجيتا..

- أنا لا أشبه أحد يا خواجة ..

- بل تشبهينها .. فملامح البراءة تجمع بينكما ..

سخرت من وصفه لي بالبراءة، وأخذت أضحك ضحكتي المائعة التي علمتها لي فيفي ..

- يبدو أنك قد سكرت يا خواجة ..

- لم أسكر صدقيني .. أتعلمين .. عندما أجلس معك أتذكرها .. أشعر بأني أحدثها.. ربما لهذا أحب المجيء إلى هنا.. فقط لأراكِ وأتحدث معكِ ..

- أنت تأتي لهنا لكي تشرب .. يا راجل يا كذاب .. إن أردت التحدث مع ابنتك فاذهب للتحدث معها وما شأني أنا بك تصدعني كل يوم بحديثك ..

أطرق رأسه في حزن ..

- ليتني أستطيع التحدث إليها.. لما كنت لأحضر هنا كل ليلة ..

- وما يمنعك من التحدث معها ..

- ليتني أذهب إلى حيث ذهبت .. ربما كنت سأرتاح .. فأنا أستحق الموت أكثر منها..

- الموت .. نكدت مزاجي يا رجل .. ارحل عني كفاني وجع رأس ..

لا أنكر تعاطفي معه الذي أخفيته كعادتي بإظهار قسوة قلبي، تركت الرجل يكاد يبكي متأثراً بذكرياته، غارقاً في قعر كأسه الزجاجي، أمرر عيناي بين الوجوه التي يبدو أكثرها مألوفاً، تتسمر عيناي نحو وجهٍ لا يمكن نسيانه، وجه حطم حياتي وأوصلني إلى قعر المجتمع، وجه سعد الذي كان يقدح الكئوس بشكلٍ سريع، وكأنه يحمل حملاً لا يستطيع إنزاله من على أكتافه، اقتربت منه أدقق في ملامحه، لم يتغير كثيراً بعد كل تلك السنوات، فما زال ذلك سعد بقسوته وبرودته التي لم أرها إلا متأخراً، لم أستطع منع نفسي من السخرية منه، بعد أن جمعنا قعرٍ واحد.

- سعد ..

- من؟!! .. من أنتِ؟

همست لنفسي ساخرة ..

- من حقك أن تنساني .. فلم أكن في حياتك غير فتاة استغليتها بشكلٍ قذر..

أردف مكملاً ..

- أنا لا أعرفك .. ولا أرغب بالتعرف عليكِ .. أرجوكِ دعيني أكمل كأسي لأذهب من هنا بسلام..

- سلام .. وهل تعرف ما هو السلام؟

- أرجوكِ .. لست في مزاجٍ للمزاح و لا أحتاج رفيقاً يجالسني.. فلا أحمل في جيبي غير ثمن هذه الكئوس التي أتجرعها .. اذهبي وابحثي عن صاحب المحفظة المليئة..

بصوتٍ يكاد يكون مخفياً ..

- يبدو أنك قد نسيت ماضيك بسرعة ليس غريباً عليك ..

جلست بالكرسي المجاور له ..

- أخبرني ما هي قصتك؟

- ومالكِ بقصتي؟ اذهبي .. أرغب بالجلوس وحيداً..

- لن تفيدك الوحدة بشيء .. أخبرني ربما أستطيع مساعدتك..

- لا أحد يستطيع مساعدتي ..

- إذاً على الأقل ستكون قد أفصحت عما في صدرك .. وستشعر بالراحة..

- و أي راحة تلك التي أرجوها.. لقد أخطأت في حق نفسي وفي حق أهلي وفي حق فتاة لم يكن لها ذنب إلا أنها أحبتني ..

- مممم .. قصة حب .. أخبرني إذاً بكل شيء ..

أشرت للنادل بإحضار زجاجة من الويسكي الفاخر، مما شجع سعد على الحديث، بدأ يقرأ على مسامعي قصة قد حفظتها عن ظهر غيب، حتى وصل للجزء الذي كنت قد غادرته فيه، حوادث كثيرة أصابته بعدي وكأن القدر ينتقم منه على ما فعله بي، فلقد ماتت زوجته وطفله الذي كان يترجاه من هذه الحياة، ثم عاد ليجد نفسه ملقياً بالشارع، بعد أن أخذت منه صاحبه العمارة الشقة التي كان يعيش فيها لتعطيها إلى حبيبها العشريني، ويبدو أن حظه العاثر لم يتوقف حتى ذلك الحد، فلقد تم نقله إلى قنا للعمل هناك، مما دفعه للتخلي عن وظيفته والبحث عن وظيفة أخرى، حتى وجد عملاً لدى سباك، وها هو أمامي مذلولا، يشعر بالإهانة وبالهجر بعد أن غضب عليه والده وقاطعه، وبينما هو يتحدث ويتحدث، قطع حديثه فجأة صمته الذي بدا شروداً، قمت أنا بقطعه ..

- ماذا بك؟ فيما تفكر؟

- أفكر في الفتاة الوحيدة التي أحبتني وقابلت حبها بالغدر.. ليتني أجدها لو أني ألقاها لأصلح خطأي وأتزوجها .. سأطلب منها أن

تسامحني ليلاً ونهاراً حتى ترضى .. ليتني أجدها .... أعتذر أزعجتك بقصتي ..

- لا .. لا .. تبدو قصتك مثيرة للشفقة .. أتمنى أن تجد ضالتك التي تبحث عنها..

عدت بكرسي للخلف وأنا أهم بالرحيل، حين استوقفني سائلاً..

- لم تخبريني من أنتِ؟ .. أنتِ حتى لم تخبريني اسمك؟

- لا حاجة لمعرفة من أنا .. فأنا كالماضي الذي أتمنى لك ألا يعود ..

* * *

obeikan.com

obeikan.com

(٢٣)

لا أدري لماذا لم أظهر لسعد بوجهي الحقيقي، الذي ربما كان باستطاعته العودة بي إلى النقاء، ربما لم يكن النقاء المطلوب هو الذي سيأتي مع سعد، فلقد اتسخ كل شيء بداخلي حتى أصبحت أشعر بالعجز عن تنظيفه، وربما أحببت رؤيته يتألم كما كنت أتألم، فظهوري في حياته الآن سيمنحه السلام والراحة التي لا أتمناها له.. يالي من سوداء.

جاءتني الست أزهار يوماً لتخبرني بأني مطلوبة بالاسم في إحدى أفراح كبارات الإسكندرية، أصابني الرعب من سماع اسم المدينة التي احتضنت سنوات عديدة من عمري، المدينة التي شهدت على جرائم عائلتي، وحكم بإعدامهم، كل ما ساورني وقتها خوفي من أن يعرفني أحدهم ويفتضح أمري، ولكن ما هي إلا دقائق حتى عدت لهدوء فبعد مرور كل تلك السنوات، لا أعتقد أن هناك من سيذكر قصة عائلتي أو حتى يتذكرني، فالجميع يعلم بموتي في حريق الملجأ، أبديت موافقتي على الموضوع وتم تحديد صباح الخميس للسفر إلى حيث منزل العريس.

بالطبع كان الوقت قد أزف على الرحيل فلم يعد غير يومين على ذهابنا، لم أحاول إجهاد نفسي في التفكير بالموضوع، فمهما حاولنا إخفاء ما نريد سيظهر يوماً ما. استقلينا القطار درجة أولى، وحين وصلنا التقى بنا السائق وتوجه بنا نحو قصر ضخم لم أر مثله مثيلاً.

التفت نحو الست أزهار ..

- يبدو أنهم من أكابر القوم ..

- نعم .. ألم أقل لكِ .. ستتعرفين هنا على الأغنياء يا عزيزتي فانتهزي الفرصة ..

- ماذا علي أن أفعل؟ .. تعلمين أنا لا أهتم بل أتركهم يهتمون ..

- أحسنتِ يا فتاة .. من يراكِ الآن لا يصدق أن هذه بديعة التي جاءت من الـ...

قطع حديثها وغزة بسيطة من ذراعي، وإشارة إلى حيث يجلس السائق، أدركت هي الموضوع بسرعة وباءت بالصمت، وصلنا إلى القصر ونزلنا من السيارة بينما تتبعنا الفرقة على الحنطور، ما إن دخلنا حتى تسمرت عيناي على تحفها الجميلة التي تكاد أن تكون ذهبية، الأرض مغطاة بالسجاد التركي، والثرايا الكبيرة، يزين البهو صورة زيتية للملك فؤاد محاطة بإطارٍ ذهبيٍ ثمين، ساورني شعورٌ أني أميرة في قصرٍ كبير، أشار كبير الخدم للخادم بأن يأخذنا للمطبخ لتناول الطعام، ولكني رفضت الذهاب وأخذت أصرخ ببعض الكلمات عن أننا أولاد تسعة، كانت الست أزهار تمسك بي تحاول تهدئتي، كي لا يغضب أصحاب المنزل، ولكني لم أصمت، حتى نزل من أعلى شابٌ وسيم الشكل، مشذب الشارب، طويل القامة يستفسر عن سبب هذا الصراخ، أخبره الخادم بما حدث، فطلب منه أخذ البقية وتركي معه، توجه الجميع نحو المطبخ، عداي وعدا

الست أزهار التي شعرت بالغيرة من كونه لم يطلبها للبقاء أيضاً وهي أشهر راقصة –عالمة- في مصر.

اقترب مني بهدوء يكاد يسرق الأنفاس ..

- لماذا تصيحين هكذا؟ .. أكيد أننا كلنا أولاد تسعة .. ولكنهم هنا لا يؤمنون بهذا .. والخادم رجلٌ مأمور فلا تقسي عليه ..

- و من أنت لتتحدث معنا؟ ... اذهب ونادي لي سيدك؟

ضحك قليلاً ..

- أنا سيدهم .. فماذا تريدين؟

شعرت بالخجل منه ...

- أعتذر يا أستاذ .. ولكننا لسنا أقل منكم لنأكل في المطبخ .. لقد طلبتمونا وأنتم تعلمون قيمتنا ..

وخزتني الست أزهار بذراعها مقاطعة ..

- آسفين يا أستاذ ... هذه الفتاة لسانها طويل قليلاً ولكننا نعرف مقامكم ...

التفت نحوها، ثم رمقته بنظرة غضب ..

- ونعرف مقامنا أيضاً ..

انفرجت شفتاه على متسعهما سروراً ..

openkan.com

- نعم ... أكيد .. فلا داعي للغضب .. وإن سمحتي لي أرغب بدعوتكما على كوبٍ من الشاي في حديقة القصر..

كانت الست أزهار تشعر بالجوع الشديد ..

- يمكنك الذهاب يا بديعة .. أنا سأذهب لتناول الطعام في غرفتي ..

- ولكن ..

- أتخافين مني أم ماذا؟

- رمقته بنظرة جادة ..

- أنا لا أخاف من أحد ..

- يبدو هذا واضحاً .. تفضلي ..

اتجهنا نحو الحديقة الخلفية للمكان، وجلسنا على الكراسي الخشبية هناك، أشار الشاب للخادم بأن يحضر الشاي.

عاد والتفت إليّ وبكل سرور ..

- أخبريني يا بديعة .. اسمك الحقيقي بديعة كما نادتك أزهار أليس كذلك؟

- نعم .. وأنت ما اسمك؟ لم نتعرف ..

- اسمي عادل .. أنا ابن صاحب هذا القصر .. واليوم خطبة أختي التي جئتم لأحياء حفلتها..

obeikan.com

- مبارك ..

- الله يبارك فيكِ .. هل تعلمين لقد أعجبني إصرارك على أخذ حقك الطبيعي من أناس يفرقون بين البشر باسم المستويات والثراء وغيره من المسميات .. أتعلمين لقد قضيت عمري كله أدرس بالخارج ، إننا كلنا سواسية وعندما عدت لمصر أخذوا ينظرون ليّ على أني مجنون بسبب هذه النظرية ..

- أشكرك .. لقد تعبت من هذا المنظور .. لقد تعبت من نظرة الناس إلينا على أننا طبقة ضعيفة لا حق لها إلا في الفتات .. ونسوا أننا كلنا خلقنا بنفس الطريقة..

- يعجبني تفكيرك يا بديعة .. كم عمرك؟

- لماذا تسأل؟ .. فيم يهمك عمري..

- إنسانه بهذا التفكير .. لابد أنها عاشت ظروف كثيرة لتصل لهذه المرحلة..

- أي مرحلة تقصد .. الرقص يعني ..

- لا أقصد هذه الخبرة عن الحياة..

- "لا تقلب عليّ المواجع" يا أستاذ .. فأمواج الحياة حملتني فوقها تارة وتحتها تارة، حتى أصبحت ما تراه الآن.. أعرفها جيداً وأعرف ألاعيبها..

- هل يمكنك إخباري ببعض تجاربك تلك ؟

صمت في عجزٍ عن إجابته، فكل من عرفوا قصتي لم يحتملوها وابتعدوا عني. ويبدو أنني قد أعجبت به، حتى أني لم أحاول مبادلته النظر، فكلما نظرت لعينيه أشعر بعجز كبير عن التنفس.

- ربما وقتاً آخر .. لقد تأخرت على الست أزهار.. يجب أن أتناول طعامي وأرتاح قليلاً من الطريق فالليلة لدي عملٌ مهم ..

- أعتذر منكِ .. ربما أجهدتك بدون قصد .. أرجوكي أقبلي اعتذاري ..

ما كدت أقف مغادرةً المكان، حتى أتى الخادم بالشاي وهو يرمقني بنظرات اشمئزاز لم أرها من قبل، فتوجهت نحوه بكلماتي الصادمة ..

- وأنت .. لماذا تنظر لي هكذا؟ .. ألا أعجبك أنت أيضاً..

- أصاب الرجل –الخادم- الذهول، وأطرق رأسه خجلاً ..

- آسف لم أقصد شيء ..

- عن أذنك يا أستاذ عادل .. ألقاك في المساء..

غادرت المكان وتوجهت إلى داخل القصر، وأخذني الخادم إلى غرفتي حيث الست أزهار، التي كانت تنظرني بفارغ الصبر لكي تعرف ماذا أراد من عادل بيه، خلعت ملابسي وبدون اهتمام أخبرتها أن حديثنا لم يتعد نظرية أننا ولاد تسعة، نظرت لي بخبثٍ كأني أخفي عنها شيئاً، واكتفت بالصمت وهي لا تصدق ما قلته، لم أهتم لأفكار الست أزهار، فلتفكر بي

ما أرادت، كان جل اهتمامي ذلك الساحر الذي عاملني كسيدة محترمة، بدون أن يكون له طمعاً في جسدي كراقصة.

يأتي بعض الأشخاص متأخرين إلى حياتنا، فلو أنهم جاءونا في بدايته لربما اختلفت النهايات، ويالها من نهاية تلك التي ستكون مع شابٌ كهذا، يحمل من ملامح الأنس ما يكفيني لأحيا طوال عمري.

* * *

obeikan.com

obeikan.com

(٢٤)

لم أتذكر أني تناولت الطعام يومها، فالنوم كما يقولون سلطان يغنيك عن طعام الدنيا، ولكن حتى في نومي لم يفارقني عادل بيه، الذي جاءني بالحلم يمسك بيدي مراقصاً إيايّ أمام الجميع، بعض أحلامنا ما هي إلا أوهاماً نختلقها، تساعدنا على الاستمرار والشعور بما نفتقده من مشاعر, دق باب الغرفة، كان الخادم يسألنا لو نريد شيئاً، وقتها لم أرد شيئاً إلا إكمال الحلم الذي قطعه عليّ، استيقظت ساخطة على كل شيء، لأجد الست أزهار وهي تحضر بدلة رقصها لارتدائها.

- كم الساعة الآن؟

- الساعة؟!! .. عن أي ساعة تتحدثين لقد حل المساء وأنتِ ما زلتِ نائمة .. كنت سأيقظك الآن فلقد بدأ المعازيم بالحضور.. وستبدأ الفرقة بعد قليل بالعزف قليلاً..

- حسناً.. سأطلب من الخادم إحضار الطعام لي .. فلم أتناول شيئاً حتى الآن ..

- طبعاً.. فلقد قضيتي يومك مع عادل بيه .. وأنتِ مستيقظة وأنتِ نائمة..

- ماذا؟ وأنا نائمة ..

- طبعاً.. لم تسمعي نفسك وأنتِ تتحدثين في أحلامك .. يبدو أن للرجل تأثيراً خارقا من اللحظة الأولى.. أنصحك ألا تنصاعي وراءه .. فهم فوق ونحن تحت .. ولن ينظر شابٌ كهذا إليكِ ولن تنتهي قصتكم بنهاية سعيدة.. اسأليني أنا؟ فلقد سبقتك بالتجربة ..

- ماذا؟ .. لم تخبريني قبل بموضوع كهذا؟

- هل ترينني أحب النكد؟ .. كانت قصة وذهبت إلى حال سبيلها .. هيا جهزي نفسك لا نريد التأخر..

تناولت طعامي وبدأت في التحضير لفقرتي، وارتديت ملابسي وانتظرت حتى تنتهي الست أزهار من وصلتها. انتهيت من تحضير نفسي، جاءني الخادم يخبرني بأن فقرتي ستبدأ. نفثت بعض العطر على جسدي، واتجهت إلى حيث الفرقة التي بدأت العزف. بدأت أتمايل على صوت الموسيقى، بينما عيناي تائهة بين الحضور تبحث عنه. هل رأيت يوماً عينين تبتسم؟ أنا رأيتهما ما إن رأيت عينيه, كان يتأملني بطريقة، ارتعد جسدي كله لها.

حتى أني خفت أن أسقط على أرض عينيه، عارية من كل شيء إلا من سحرهما. أكملت رقصتي واتخذت طريقي إلى غرفتي، حين استوقفني عادل بكلماته ...

- بديعة .. وأنتِ حقاً بديعة ...

- التفت للخلف أطالعه بنظرة تخفي خلفها سعادة كبيرة ..

- حقاً .. هل أعجبتك؟

- نعم ... هل تسمحين لي من وقتك؟ ..

- وضعت الشال على جسدي من أعلى، وتوجهنا نحو الشرفة حيث لا أحد غيرنا، حيث الجميع بالداخل يتابع بقية الفقرات، وقفنا قليلاً في صمت، لم يجرؤ أي منا على الحديث، حتى بادرته أنا بسؤالي ..

- أخبرتني أنك عشت بالخارج .. أين يا ترى؟

- عشت بإنجلترا... قضيت بضع سنواتٍ في دراسة الحقوق ..

- هل تعني أنك تعمل الآن كمحامٍ؟

- نعم .. لي مكتب بالقاهرة ..

- ويا ترى كم تأخذ لقاء عملك ؟

- لا آخذ شيئا .. فأنا أدافع عن المظلومين والفقراء بالمجان ..

- حقاً .. يبدو أنك من أنصار الطبقة المعدمة ..

- نعم .. رغم أن هذا يزعج والدي كثيراً ..

قطع كلماته فجأة وأخذ ينظر إلى صدري مما ضايقني، فأخذت أغطيه بالشال, اقترب مني أكثر ومد يده نحوي، فابتعدت إلى الخلف في ذعر,

فلم أكن أتوقع أن تصل جرأته إلى حد الوقاحة، رمقني بنظرة متعجباً لردة فعلي، ثم ابتسم ..

- لا تخافي .. لا أقصد شيئاً ولكن قلادتك أثارت إعجابي .. من أين لكِ هذه القلادة..

تحيرت قليلاً مما عليّ قوله، هل أكذب؟ أم أقول الحقيقة.. كانت الإجابة بالنسبة لي واضحة، قاطعنا صوت والده الذي كان يناديه، والذي حمدت الله على مجيئه في هذا الوقت، استأذن مني وتوجه نحو والده بالداخل، بينما بقيت أنا في انتظاره، ثم خفت أن يطيل البقاء وأنا بدأت أشعور بالبرد، فلم تكن ملابسي لتدعم تدفئة جسدي العاري. قررت الدخول لارتداء ملابسي، وما إن اقتربت من ستائر الشرفة حتى سمعت والده يوبخه على التحدث مع فتاة مثلي، ممن يخلج المجتمع من الاقتراب منهم، بينما هو يحاول الدفاع عني بوصفي أني إنسانه كبقية البشر، لم تكن كلماته كافية إلا لزيادة غضب والده، الذي عنفه وأمره بصرامة أن يمتنع عن الحديث معي.

شعرت بالغضب تجاه والده الذي لا تختلف نظرته عن نظرة المجتمع لأي شخص لا ينتمي إلى طبقتهم، غيرت اتجاهي، وعدت لغرفتي وأنا أكاد أشيط غضباً وحزناً، ولدي رغبة شديدة في البكاء، سألتني الست أزهار عن سر حالتي الغريبة، وما إن أخبرتها ضحكت وذكرتني بما قالته ليه سابقاً عن كون علاقتنا بمن هم أعلى منا مستحيلة، فنحن في الغالب من نخرج من معركتهم خاسرين لأننا فقراء، وهم أغنياء يستطيعون جبر جراحهم بما لديهم من مال ومكانه.

دق باب الغرفة وذهبت الست أزهار لفتح الباب اعتقاداً منها أنه الخادم، ولكنها فوجئت بعادل بيه أمامها يطلب أن يراني، ما إن سمعت صوته حتى قفزت من مكاني، لا أدري أفرحة أم خوفٌ اعتراني لحظتها، أشارت لي الست أزهار أن آتي لأتحدث معه، تقدمت بضع خطواتٍ ثم ترددت فإن كانت قصتنا – إن كانت قصة- ستنتهي نهاية كلنا نعرفها، فما فائدة تضييع الوقت فيها، وحرق مشاعرنا في ثنايا أحداثها، ربما لا ذنب لعادل بما قاله والده، ولكنه في النهاية سينصاع لوالده ولأسرته وسأبقى أنا أعاني من تجربة قد تدمر حياتي للمرة الثالثة.

استأذن عادل بيه الست أزهار بالدخول، في حين أنها لم تمانع خجلاً منه بل تركت لنا الغرفة أيضاً، عدت للجلوس على كرسي التسريحة أزيل مكياجي، في محاولة لإبداء عدم الاهتمام، دنا مني قليلاً وبصوته الدافئ ..

- لماذا غادرتي المكان؟ ... لم نكمل حديثنا بعدّ ..

- يمكنك إكماله مع والدك .. فهو يعرف أكثر..

- هز رأسه وقد فطن أني قد سمعت حديثهما ..

- لقد سمعتنا أليس كذلك؟ .. اسمعي يا بديعة أنا لست كوالدي ..

- ولكنك من نفس طبقته ..

- أعلم ذلك .. ولكن هذا لا يمنعني من أني أرى نفسي مثلك ومثل الآخرين ... في النهاية مجرد إنسان..

- كلماتك ما هي إلا كلمات مثقفين .. يمكن قولها ولكن لا يمكن العمل بها .. فالمجتمع لا يتغير في طريقة حكمه على الآخرين..

- ماذا عنكِ؟ .. استمعي لحديثك ... سترين أنه كلام مثقفين ..

- كلماتي ليست إلا كلمات امرأة أخذت من الحياة نصيبها الكافي ...

- أعتقد أن المكان لن يناسب لإكمال هذا الحديث الشيق .. ارتدي ملابسك وسأراكِ بالشرفة حيث كنا..

- ألا تخاف أن يراك والدك معي مرة أخرى ..

- لا تقلقي من والدي ... فأنا قادر على إسكاته.. كما أن أبي يعلم كم أنا عنيد.. سأنتظرك هناك ..

غادر عادل بيه الغرفة تاركاً إياي في حيرةٍ من أمري، هل أكمل أم أكتفي بهذا القدر؟. إلا أنني أشعر معه ولأول مرة بأني إنسانة يحترمني أحدهم، كما يغمرني شعور بالراحة لم أشعر بها من قبل. خلعت ملابسي وبدأت بارتداء ملابس أكثر حشمة على ما أعتقد، حين طرأ بذهني سؤالٌ أوقف تفكيري، هل لو أنه علم بحقيقة كوني بنت ريا، هل كان ليكمل حديثه معي؟. جلست قليلاً أتأمل المكان حولي في صمت، حين أوحى لي قلبي بأنه يدافع عن المظلومين وأنا منهم، بل أنا أكثر الناس عرضةً للظلم، فلقد عانيت طوال حياتي من ذنبٍ لم أقترفه، أكملت ارتداء ملابسي وتوجهت إلى حيث كنا على الشرفة.

* * *

(٢٥)

تلك الليلة التي قضيتها بالإسكندرية كانت من أحب الليالي إلي، وذلك لأول مرة فلم تكن الإسكندرية غير بيت الرعب الذي يعيد لي ذكريات أخاف أن أتذكرها، فأقع في براثين ظلامها، ربما كان أجمل شيء في تلك الليلة هي عادل، الذي أزاح عن صدري الكثير من الكلمات العالقة بداخله، فحديثنا كان قد يطول ويطول، لولا حفلة أخته التي ألزمته البقاء مع الناس، ودعته يومها وأنا أتمنى أن أراه مرة أخرى، ولكن على رأي الست أزهار هؤلاء فقط من نلتقيهم مرة واحدة في العمر، ليت عمري كله لقاءاتٍ كهذه، لا تنتهي أبداً إلا بانتهائه، عدنا للقاهرة صباح اليوم التالي لنجد الكثير من الأعمال والمشاكل بانتظارنا، فلقد كاد أحدهم أن يغلق الكبارية بحجة مخالفته لشيءٍ ما، إلا أن اتصالات الست أزهار بأعالي القوم، كانت كافية لردعه عن فعل أي شيء.

مر ثلاثة أيام لم أفكر فيها بشيء إلى بعادل، الذي سلبني لبي وجعلني أتوهمه حقيقة، وكثيراً ما كنت أسأل نفسي، هل هذا حب أم مجرد إعجاب من الوهلة الأولى؟. لمجرد أني وجدت من يستمع لي، من يُشعرني بأني موجودة بطريقة مختلفة، وإن كان حباً فماذا أسمي حبي لسعد؟، هل كان سعد حباً حقيقياً في حياتي أم أنه مجرد انجذاب في لحظة ضعف لأي شخص قد يطعمني الحب ولو بالقطرة؟. ربما كانت حياتي

التي قضيتها بلا حب مدعاة لأن أكون باحثة جادة عنه، ولكن هل ميزت مفاهيمه الحقيقية التي تعرفني الصادق من الكاذب؟.

كل ما كنت أعرفه لحظتها أن عادل قد يمثل لي الحب الصادق، الذي سينتهي بمأساة حقيقية كما انتهى حبي الكاذب، فرغم اختلاف أشكالهما إلا أنهما يجتمعان على نقطة واحدة .. وهي الفراق، ولكني كنت على استعداد لذلك الفراق أن ذقت طعم الحب الحقيقي معه، أكاد أدفع لحظات عمري كله مقابل أن أراه أو أحدثه مرة أخرى، قاطعت تفكيري فيفي تأتيني ركضاً، وتحدثني بأنصاف الكلام.

- ماذا هناك يا فتاة؟ .. هل حدث مكروه لست أزهار؟

- حاولت تمالك نفسها لتخرج كلماتٍ سليمة تفسر حالتها الغريبة..

- عادل بيه بالخارج ويرغب في التحدث معك ..

- عادل بيه .. وما سيأتي به هنا .. هل أنت متأكدة؟

- نعم وكيف لي أن أنساه؟

- اذهبي وأدخليه الصالون .. سأرتدي ملابسي وأحضر للقائه..

ركضت نحو دولاب الملابس، أنتقي منه اللائق للقائه وأنا أكاد أرقص من السعادة, لقد عاد من أجلي، يبدو أنني قد تركت بداخله ما لم تستطع أي من بنات حواء تركه، ارتديت ملابسي على عجل، ووضعت أحمر شفاه وبعثرت القليل من رائحة الياسمين على جسدي، وأسرعت إلى غرفة الصالون حيث ينتظرني، هدأت من خطواتي ما إن وصلت لباب

الصالون أصطنع الرزانة، وطلبت من فيفي إعداد فنجانين من القهوة، فتحت الباب ودلفت للغرفة وأنا أتأمله في شوق، كان هناك يجلس بذات الوسامة، ببدلته البنية وطربوشه الأحمر الأنيق، مددت يدي أحييه ..

- كيف حالك يا عادل بيه؟..

- أنا بخير .. كيف حالك أنت يا بديعة؟.. اشتقت للحديث معكِ..

- أنا بخير .. ما أتى بك عندنا؟ .. لا تقل لي إنك أتيت لنتحدث..

- بصراحة .. لقد حضرت لإعطائك هذه ..

- وضع يده بجيبه وأخرج منها قلادتي الذهبية أو في الحقيقة قلادة رباب ..

- تفضلي .. لقد وجدها أحد الخدم في الشرفة .. يبدو أنها سقطت منكِ عن غير قصد..

- أشكرك .. هل تصدق لم أنتبه لفقداني إياها؟.. الحمد لله أنك وجدتها ما كنت لأقبل بخسارتها..

- يبدو أنها قريبه إلى قلبك ..

- نعم فلقد كانت قلادة صديـ .. أقصد قلادة والدتي .. انظر إنها تحمل صورتها بالداخل..

- فتحت القلادة ومددت بها إليه .. أخذ يتأملها ثم ما لبث أن تغيرت معالم وجهه كاملة وأخذ يسألني بصرامة ..

obeikan.com

- هل هذه حقاً صورة والدتك؟

- أصابني سؤاله بالخوف من أن يكون قد اكتشف أنها لا تمت لي بصلة .. فأجبته بتردد..

- نعم .. كما أنا متأكدة من أنك عادل بيه ..

- لا أصدق ما أرى .. أنها صورة زوجة عمي ..

- ماذا؟!!

- لقد كانت هذه قلادتها قبل أن تهديها لابنتها رباب التي فقدناها وهي صغيرة.. يخبرني والدي دائماً بأنها ماتت .. ولكني لم أصدق يوماً هذا .. وبالفعل ها أنا أجلس أمامها.. كيف؟ .. كيف وصلتي إلى هنا؟ .. و أين كنتِ طوال هذه المدة؟

- لم أجد بداً من إكمال القصة فلو أني أخبرته الحقيقة لفقدت اهتمامه بي، ولربما كانت تلك القلادة هي مفتاح دخولي لتلك الطبقة التي ينتمي إليها، أخذت أعد الكلمات برأسي، ثم بدأت في قص القصة التي أخبرتني بها رباب مع إكمالها بما حدث لي حتى وصلت إلى هنا، كان يستمع إليّ بكل اهتمام، ولم تخف ملامحه الكثير فلقد كان يشعر بالسعادة لإيجادي، تفاجأت به حين وقف وهو يجذبني من يدي ..

- هيا سنذهب إلى منزلنا .. يجب أن يراكِ والدي .. سيفرح كثيراً بعودتك .. لا أصدق أنكِ رباب..

obeikan.com

- أنتظر لا أستطيع العودة معك ..

- لماذا؟

- لم أكن أعلم ما عليّ قوله، هل أخبره بحقيقة كون والده وأخوته هم من كانوا سبباً فيما حدث لرباب برميهم إياها في الملجأ .. أم عليّ الاعتماد على وجوده بجانبي كعامل حماية وأكتفي بذلك .. فلم يكن عادل من النوع الذي قد يتخلى عني فلم يكن يشبه أباه وأعمامه في شيء، ولكن هل كانت الست أزهار لتقبل بخسارتي؟ ماذا عنها وماذا عن الكبارية الذي أصبح لا يعمل إلا بوجودي؟. أخذت أبحث عن سبب يهدئه حتى أفكر فيما سأفعله ..

- يجب أن أخبر الست أزهار بهذه الأنباء السعيدة .. فأخيراً وجدت عائلتي بعد طول غياب..

- حسناً .. سننتظرها سوياً حتى تعود لنحدثها معاً.. ولكن كيف لكِ ألا تتذكري والدي أو تتذكريني ..

- فاجأني سؤاله ، فكيف لي حقاً أن أنساهم .. أي عذرٍ ذلك الذي يمكن أن أقدمه له ليقتنع ..

- لا تنس لقد كنت صغيرة .. والتجارب التي مررت بها كافيه لجعلي أنسى..

- كيف لأبي ألا يبحث عنكِ .. كيف وصلتي إلى الملجأ أصلاً؟ .. غريب ..

- وجب عليّ هنا أن أجيبه بإجابة تكون كافية لإزالة الشك بداخله، فلو أن تلك الأسئلة زادت من حيرته لربما انكشف أمري..

- لقد ضعت في الشوارع بعد وفاة والدتي حتى وجدني أحدهم وسلمني للشرطة وعندما لم يتعرف أحد عليّ أرسلوني للملجأ .. ربما اعتقد عمي أني مت وفقد الأمل في إيجادي..

- ربما .. لن تصدقي مدى سعادتي بلقائك يا رباب.. ولكن لماذا تسمين نفسك بديعة؟

- اسم الشهرة .. ففي عالمنا هذا لا نسمى بأسمائنا الحقيقية .. فأغلب ما فيها غير حقيقي كأسمائنا ..

كانت إجاباتي إلى هذا الحد مقنعة بالنسبة له، برغم خوفي من أن يثير إصرار المحامي بداخله على الوصول للحقائق بنفسه، وتفسير الأحداث برؤيته البوليسية.

فلا يعتمد الجميع على تصديق ما يسمعون، كثرٌ منهم كعادل يؤمنون بالوقائع والدلائل فقط، فإن كان قد صدق كوني رباب؛ فلأن القلادة ومعرفتي بحادثة والدتها أكبر أدلة على كوني ذات الفتاة، ولو أن الحقيقة دائماً تأتينا جرياً ولو كانت عرجا، على عكس الكذب الذي ينفضح بسقوط قناعه.

* * *

(٢٦)

انتظرنا حتى عودة الست أزهار التي تفاجأت مما سمعت، لم تكد المرأة تصدق أني بنت ذوات، فلم تكن ملامحي توحي بذلك، ولكنها استسلمت لذلك بعد أن استمعت إلى حديث عادل بيه، والذي طلب منها عودتي معه إلى الإسكندرية، لمقابلة والده، كانت تتأملنا الست أزهار وبعينيها نظرات شك، وكأن قصتي هذه ما هي إلا حكاية ألفناها أنا وعادل للهروب سوياً أو حجة لتركها، طلب مني عادل أن أقوم وأجهز نفسي للسفر، بينما هو يكمل حديثه مع الست أزهار، وبالفعل تركتهما معاً، وذهبت إلى غرفتي حيث بدأت في إعداد حقيبة سفري، وما إن انتهيت حتى أخبرته بذلك، ودعنا الست أزهار التي بكتني كابنتها وأخذنا طريق السفر إلى الإسكندرية، ركبنا القطار يومها متوجهين إلى هناك، لم أكن أصدق تسارع الأحداث الذي حدث، فمنذ أربعه أيام ذهبت إليهم كراقصة ترقص في حفلهم، واليوم أعود لهم كفرد من عائلتهم.

كانت سعادة عادل بي لا توصف، وكان الأجدر بي أن أكون سعيدة بقدر سعادته، إلا أن القلق انتابني من ردة فعل عائلته التي ستجدني أمامها فجأة أخبرها بأنني ابنة أخيهم المفقودة، أمسك عادل بيدي لأول مرة، كم أشعرتني تلك اللمسة بحنانٍ افتقدته وكم أشعرتني بالخجل من كوني أخدعه كم كنت أرغب بقول الحقيقة، إلا أن رغبتي التي أصبحت في

زيادة من البقاء بجانبه، دفعتني لفعل أي شيء لكي لا يفرقنا سبب أو طبقة، فنحن الآن سنكون سواسية من ذات الطبقة ولن يستطيع أحد التفريق بيننا أبداً.

ساعاتٍ قضيناها بالطريق، تمنيت لو طالت، توجهنا بعدها للقصر حيث عائلة رباب، أسرع عادل بدخول باب القصر ينادي والده.

- أين أبي يا عم سعيد؟

- والدك في الحديقة يا عادل بيه..

هكذا إجابة الخادم وهو يتأملني بعينين يملؤهما التساؤل، أمسك عادل بيدي يجرني خلفه وهو لا يكاد يمشي بل يطير من على الأرض، حتى وصلنا إلى حيث يجلس والده، الذي فوجئ بمنظرنا معاً، انتفض الرجل ما إن رآنا صارخاً بابنه ...

- ألم أقل لك ألا تتحدث معها مرة أخرى .. اليوم تأتيني بها ممسكاً بيدها .. هل جننت؟

- اسمعني يا أبي.. فأنت لن تصدق من هي..

- من تكون هي غير راقصة من شارع محمد علي .. مثلها مثل أمثالها من الراقصات من تلك الطبقة الساقطة ..

- لا يا أبي .. بديـ .. أقصد رباب ليست من طبقة الراقصات .. أنها ابنة عمي فريد المفقودة والتي أخبرتني أنها ماتت ..

اتسعت حدقتا عين والده، وكأنه سيجن مما يسمع ..

- رباب من أيها الغبي .. رباب ماتت من زمان ..

- لا لم تمت يا أبي .. انظر هذه قلادة زوجة عمي فريا ل ... وهذه هي رباب ابنتهما..

صمت والده وهو يتأمل القلادة، ثم عاد بنبرة الهجوم ..

- قد تكون قد وجدتها وجاءت تنصب علينا بها ..

- لا يا أبي فلقد حكت لي ما حدث مع عمي فريد ووالدتها .. إنها حقاً رباب .. لماذا لا تصدقني؟

- أصدق ماذا؟ .. هذا كلام لا يمكن تصديقه ..

- أرجوك يا أبي تحقق من ملامحها واسمع قصتها .. لقد تعذبت كثيراً منذ ذلك اليوم.. وجاء اليوم الذي يجب علينا أن نعوضها ما فقدته وأن نعيد لها مال والدها ..

- يبدو أنك جننت حقاً .. لم يكن لوالدها مال فلقد كان معدماً .. وبقينا نحن نسدد ديونه بعد موته..

- هل ستترك ابنة أخيك تعود لحياة الضياع ؟.. أليس أولى بك أن تحتضنها بدل أن ترميها..

- أرجوك خذ هذه الفتاة النصابة وأخرج بها من منزلي ..

- أحقاً ستفعل هذا معها يا أبي .. كيف لك أن تفعل هذا بابنة أخيك .. إن هذا ظلم بين.. رباب لن تعود للشارع مرة أخرى وستبقى هنا في منزل عائلتها..

- أتعصيني يا عادل .. هل تعتقد أنك ما أن حفظت كلمتين في الحقوق ستأتي لتضع رأسك برأس أبيك؟

- ولكن يا أبي ..

سحبت ذراع عادل طالبة منه أن نغادر، حين هاجمني والده بكلماته القاسية ..

- نعم .. خدها وعد للشارع من حيث أتت .. ليس لي ابنة أخ .. فابنة أخي قد ماتت..

خرجت أنا وعادل وعلى وجهه علت ملامح الانكسار والحزن، أخذ يعتذر لي لأنه لم يستطع أخذ حقي من أبيه، أخذت أهون عليه، كما لو أني توقعت هذه النتيجة، حين قاطعني فجأة، ليخبرني بأن هناك من يستطيع التأثير على والده وإرغامة على تقبلي .. ألا وهي عمته فريدة والتي كانت تربطها بوالدتي علاقة جيدة، حتى أنها حزنت كثيراً لخبر وفاتها ووفاتي، لم يكن أمامنا حلٌ غير الذهاب إلى حيث تقطن عمته فريدة، لنحكي لها القصة لعل بيدها تتغير أمورٌ كثيرة.

ركبنا السيارة وتوجهنا مباشرةً إلى منزل عمته، التي لم تصدق أي كلمة مما أخبرناها بها من شدة الصدمة، كان للقلادة مفعول السحر في جعلها تتقبل الحقيقة التي أخبرناها بها، فلقد ميزت القلادة ما إن رأتها قلادة

فريا ل على حد قولها، نجح عادل بإقناع عمته أن تقف إلى جانبي، وأن ترغم والده على تقبلي وإعادة أموال والدي – فريد- إليّ، وبرغم صعوبة ذلك، إلا أن عمته قد أبدت التعاون الكامل في الوقوف في وجه أخيها حتى أسترد مالي، كانت المشكلة الأخرى هو مكان مكوثي هنا، ولكنها حلت عندما رحبت بي عمة عادل للمكوث عندها، موضحة وبشدة أن المنزل منزلي، وأن عليّ مناداتها بعمتي وأن أعتبر نفسي جزءًا من هذه العائلة.

وهكذا وضعت أولى خطواتي بداخل تلك العائلة، لأصبح بعدها واحدة منهم ذات ثراء شديد، فما إن أسترد مال والدي – والد رباب- حتى أنعم بكل ما حرمت منه في حياتي، المال والاحترام، فلقد حان الوقت لكي أسترد من الحياة كل ما أخذته مني على مدى سنوات عمري المهدرة، فالفرصة لا تأتينا إلا مرة، وعلينا اغتنامها بكل السبل الشرعية وغير الشريعة.

* * *

obeikan.com

(٢٧)

كم تبدو أذرع الحياة حانية في بعض الوقت الذي لا نطلب منها أن تكون كذلك، فالسعادة تأتينا أحياناً بدون استئذان، إن لم نركض خلفها أو أن رافقها المال، ربما لا يشتري المال السعادة، ولكنه سيمكننا من شراء أي شيء وهذا هو المهم لي، قضيت في بيت العمة ما يقارب الأسبوع، حيث كانت الحرب قائمة بينها وبين والد عادل، الذي رضخ في النهاية لمطالبها، ولكن كان عليهم أن يجدوا طريقة لتقديمي للمجتمع بطريقة راقية، لا تقلل من قيمتهم بين طبقات المجتمع الراقي، طلبت عمتي فريدة من الخياطة أن تخيط لي بعض الفساتين، واستدعت جواهرجي العائلة لشراء بعض الجواهر الثمينة، وذلك استعداداً لحفل استقبالي، التي تعده لتقديمي إلى العائلات الثرية الأخرى، ولكنها في البداية منحتني ثلاثة أشهر لكي يتم مسح كل شيء قد يتعلق بداخلي من الماضي، وطلبت من الخواجة كريستو تعليمي الفرنسية ومن الأستاذ فتوح اللغة العربية ومن مدام كيتي تعليمي الإتكيت. مجموعة كبيرة عملت جاهدة على تغيير كل شيء فيّ، ولكنهم عجزوا عن ذلك بمفردهم فلولا وجود عادل في حياتي لما استطعت أن أتفاعل مع ما يطلبونه مني ولو لدقائق.

كانت رؤيتي لعادل الذي قطع المسافة بين القاهرة والإسكندرية ذهاباً وإياباً فقط ليراني، من أجمل اللحظات التي قد تعيشها أي فتاة، كنت

ألتقيه تقريباً بشكل يومي يدعوني للتنزه، ويفيض معي بحديثه الشيق عن الإنسانية المعذبة كما كان يسميها، ذات يوم دعاني للذهاب إلى شاطئ البحر، كان الجو وقتها صيفياً جميلاً يدعو إلى السباحة، أحضرت المايوه الخاص بي، وبدأت ألعب بالمياه على الشاطئ، بينما هو قرر أن يأخذ غطسا في الماء، أنهى سباحته وأسرع إلي بينما أنا أجلس على الشاطئ، حيث ناولته المنشفة ثم جلس بجواري.

- أتعلمين يا رباب .. أنا لم أنسكِ منذ كنا صغاراً.. دائماً كنتِ معي .. والآن لا أستطيع أن أبتعد عنك.. يا ترى ما السبب؟

أوردت وجنتاي خجلاً ..

- لا أدري ..

- ألا تعلمين حقاً أم أنك تخجلين من الاعتراف ..

- أعترف .. أعترف بماذا؟

- تعترفين بأنك تحبينني..

أذهلتني جراءته .. هل كان أمري واضحاً إلى هذه الدرجة؟..

- أحبك .. ومن أخبرك بهذا؟

- أخبرني قلبي ..

- وبأي مناسبة يخبرك قلبك ..

- بمناسبة أنه اكتشف أنه يحبك أيضاً..

صمت حياءً من كلماته، أنا أصمت حياءً .. أنا التي لم أعتد إلا ارتداء اللاشيء والرقص أمام السكارى ..تستحي .. يا لسخرية الحياة..

- لماذا صمتي؟ .. هل صمتك قبول لما أقول أم اعتراض؟

- ألم تسمع بالمثل القائل .. السكوت علامة الرضا ..

اقترب مني يضمني بين أحضانه ..

- يا حبيبتي يا رباب..

ربما تقبلت النصف الأول من الجملة ولكني لم أستطع هضم الباقي، لماذا تقف رباب دائماً بيني وبين من أحب؟.. وكأن هذا الاسم لعنة تطاردني ..

- نادني بديعة ..

- بديعة .. لماذا يا رباب؟

- لا أدري ولكني قد اعتدت على هذا الاسم .. يبدو رباب بالنسبة لي الآن غريباً..

- لو أنه غريب فيجب أن تعتادي عليه .. و أن تنسي الماضي وتستمتعي بحياتك الآن.. مع من يحبك وتحبينه .. اسمعي يقولون أن محمد عبد الوهاب سيأتي للإسكندرية لإحياء حفل غنائي له.. سأستأذن لكِ في الحضور من عمتي وسأبتاع لنا التذاكر..

أسكتتني كلماته، واكتفيت بأن أتمتع بكل لحظة أقضيها بين ذراعيه الحانيتين. ارتدينا ملابسنا وعدنا للمنزل حيث كانت عمتي بانتظارنا وقد بدا عليها الضيق، مما أثار قلقنا من حدوث شيء.

- عادل .. رباب .. أرغب في التحدث إليكما في غرفة المكتب .. الحقا بي..

تبادلنا النظرات بتعجب، ثم تبعناها إلى الغرفة المقصودة..

- اسمع يا عادل أنت تعرف أننا نعد رباب الآن للاختلاط في وسطنا .. ولكن ما تفعله الآن سيسيء إلينا..

- وما هو الذي أفعله يا عمتي؟..

- خروجك كل ليلة مع رباب .. الناس بدأت تتحدث عن العلاقة التي تجمعكما ..

- وما همنا بالناس.. هذه ابنة عمي .. وليقل من يريد ما يريد ..

- الأمور لا تحل بهذه الطريقة يا عادل .. وأنت تعلم ذلك .. يجب عليك الامتناع قليلاً عن رؤية رباب حتى حفل التقديم ..

- ولكن يا عمتي ..

- انتهينا يا عادل .. وأنتِ يا رباب يجب عليكِ فعل الشيء نفسه والتركيز الآن مع الدروس التي تأخذينها .. لن تخرجا وحدكما مرة أخرى..

عدنا لتبادل النظرات مرة أخرى، ثم رضخنا لطلب عمتنا على مضض، لو أنها طلبت منا أن نقتل أنفسنا بدلا أن نتوقف عن رؤية بعضنا البعض لفعلنا، ولكن لم يكن الوقت يسمح بالمعارضة وخاصةً بعد وقوفها بجانبنا ضد والد عادل وأخوته. كنت أنا أكثر حزناً من عادل على هذا القرار، فأنا ما صدقت أن أجد أي عذرٍ يبقيني بجانب عادل، أي شيء قد يجعلني أراه أو أسمع صوته.

خرجنا من غرفة المكتب وعلى وجوهنا قد بدت معالم الحزن، التفت نحوه بعينين يملؤهم الرجاء أسأله عما سنفعله، أمسك يدي مؤكداً بأنه لن يسمح لشيء أن يفرق بيننا، وأنه سيحدثني بالهاتف كل ليلة ليطمئن عليّ، وطلب مني أن أجد في تعلم دروسي حتى أقرب من زمن حفل تقديمي، وحتى يتسنى لنا بعد ذلك الخروج سوياً كما نريد، وعدته أن أجد في دروسي وأن أنتظر هاتفه كل ليله، حتى أطمئن عليه. لم يكن اطمئناني عليه سبباً مقنعاً لي أكثر من رغبتي في البقاء بجانبه دائماً خوفاً من أن تنسيه أخرى أياي، فبرغم من اعتراضي على قرار عمتي الذي لم أجد له مبرراً، إلا أن معارضتها في ذلك الوقت قد تجلب لي عدواً آخر، عدواً له القدرة على تدمير كل شيء في ثوانٍ، فلولا ما فعلته لأجلي لما تقبل أحد وجودي ولو حتى بألف دليل، فما كان عليّ إلا احترام رغبتها، والظهور بمظهر الانصياع المحبب لديها، حتى أكتسب مكانه أكبر بقلبها قد تساعدني بعد ذلك إن أردت الزواج بعادل، فنحن نرضخ أحياناً لأمور لا نريدها، ليس ضعفاً منا ولكن أحياناً كثرة ذكاء.

* * *

obeikan.com

(٢٨)

اعتدت كل ليلة انتظار مكالمة عادل، لتضخ بروحي وقلبي الحياة، لم أعلم أنه لهذه الدرجة يصب علينا الحب عذابه في غياب من نحب، ولكن يا له من عذابٌ جميل، له مذاق خاص قد يجعلنا نهذي كمن أصابته الحمى، وما أجمل التسلل ليلاً لسرقة الهاتف، والتحدث بصوت منخفض حتى لا يسمعنا أحد، وكأن حبنا سرٌ جميل، رائحته تملأ قلبنا فقط لا نشارك بها أحداً من الآخرين، كثيراً ما كنا نفتح الراديو معاً، للاستماع للست أم كلثوم وهي تغني عن صبابة الحب، كم أعشق تلك السيدة التي تجعلني أسطل من صوتها الرخيم، الذي تدغدغ كلماته قلبي كما تفعل كلمات عادل بي.

كثيراً ما يدفعني عادل إلى الجنون، وكثيراً ما أحببت ذلك، لا أدري لماذا تذكرت أمي ريا وقتها، تمنيت لو أنها معي الآن لترى ما أنا به من سعادة، لكي تنعمي معي بالعز والثراء، ولكن هل لو ظللت بنت ريا كنت أصل إلى ما أنا به، لو أن أمي كانت معي لقتلت عمتي وسرقت مجوهراتها، فلم تكن أمي لتصمد أمام لمعان تلك المجوهرات التي بدت ثمينة، ولامعة في يدي وعنق عمتي فريدة، أحمد الله أنها ليست هنا، لكانت سبباً في ضياع كل شيء، وسبباً في فقداني لعادل أيضاً، كنت أسهر الليالي أستمع إلى أغاني أم كلثوم، وأنا أتعجب من تلك المشاعر التي داهمتني فجأة، فإني والله قد

كنت أقسمت على أن لا أحب مرة أخرى، بعد أن أذاقني حب سعد المهالك جميعاً ووصل بي إلى القاع، لكن الحب يختلف مع كل حبيب، فالحب كالإسفنجة يتلون بلون قلوب محبيه.

اتصل بي عادل ذات ليلة كعادته، ولكن حديثه هذه المرة لم يكن كأي حديث، فلقد أخبرني برغبته في الزواج مني، وأنه سيحدث والده بهذا الأمر بعد الحفل، لكي يصبح وجودي أمراً رسمياً معترفا به من الجميع، كم كنت سعيدة تلك اللحظة، لم أصدق ما أسمعه، أخيراً سأصبح زوجة عادل ابن الباشا حسني إبراهيم، أخيراً سأراه كما أحب وأجلس معه وقتما أريد، ألمس يده .. أحتضنه كما أشاء، ما كنت لأسعد في حياتي كلها كما الآن، وكأني نسيت كل شيء مررت به، نسيت أحزاني والحياة الجافة المتعبة التي حييتها منذ أن جئت إلى هذه الدنيا.

كان قرار عادل أكبر داعم لي لكي أنتهي من الوصول إلى درجة البرنسيسة، فأخذت أجتهد وأجتهد حتى انتهيت من كل دروسي بنجاح، فالآن أستطيع التحدث كبنات الذوات بالفرنسية والعربية، يمكنني الآن المشي والأكل مثلهن، حتى ملابسي أصبحت ذات رونق خاص يضيف إلى جمالاً خاصاً أذهل الجميع، حتى أن عمتي تعجبت من هذا التطور السريع لي، وبدت سعيدة بما وصلت إليه في هذه الفترة البسيطة، لذا قررت تحديد الأول من الشهر القادم كموعدٍ لحفل تقديمي إلى المجتمع الارستقراطي الجميل.

جاء اليوم الموعود وأنا في انتظاره على أحر من الجمر، ليس لألتقي بمجموعة من الأثرياء ممن ينظرون للعالم من منظارهم، بل لأنه سيكون اليوم الذي سيجلب لي السعادة بعد ذلك مع عادل، ارتديت فستاني..

تحليت بحلى ثمينة ..تزينت بخفة ونثرت عبق العطر على عنقي، وتوجهت في جلالة إلى الأسفل حيث الحفل، كان هناك عادل ينتظرني وعلى محياه ابتسامة سعيدة، وبعض ملامح التعجب من شكلي الجديد، استقبلني مقبلاً يدي، مطريا على جمالي بكلماته التي أخجلتني.

تجمع بعض الشباب حولي يحاولون التقرب مني – على ما يبدو- مما جعل عادل يغضب قليلاً، رامقاً إياي بنظرة صارمة وكأنه يطلب مني أن أبتعد عنهم، هل كنت لأسمي هذه غيره، أم أن فرط حبي له هيأ لي ذلك؟ استأذنتهم قليلاً متوجهة نحوه بدلال ..

- ماذا بك يا عادل؟ .. لماذا كل ملامح الغضب هذه؟

- ألا تعلمين؟ فيم كنتِ تتحدثن معهم؟.. وكيف لكِ أن تسمحي لهم بتقبيل يدك؟

- لم أستطع منعهم يا عادل، أليس الغرض من الحفل أن يعرفني الناس.. ها هم يتعرفون عليّ ويتقربون مني..

- يبدو أنه قد أعجبك ما لقيتيه..

- لا تقل هذا يا عادل .. فأنت تعلم مقدار حبي لك.. أنت فقط من يتربع على عرش قلبي..

- لا يبدو هذا فمع أول شاب يتحدث إليكِ نسيتني ..

- لا تقل هذا .. كنت أجامله فقط هكذا علمتني مدام كيتي ..

- قاطع حديثنا صوت الموسيقى تعزف لحناً هادئاً، جمع تحته الجميع لرقصة هادئة..

- أتسمح لي ..

- ألم تتعلمي أن الرجل من يطلب من المرأة الرقص وليس العكس؟

- لا فرق بيني وبينك يا عادل .. فنحن قلبٌ واحد أليس كذلك؟

عاد عادل للابتسام مرة أخرى، واضعاً يدي بيده ولافاً ذراعه الأخرى حول خصري، أخذنا نرقص معاً ونرقص، حتى انتهت الموسيقى وعينانا لم يفرق بينهما أحد. حتى دقت الكئوس واقتربت عمتي فريدة مني، لتعلن للجميع عن وصول رباب ابنة أخيهم فريد إلى العائلة، صفق الجميع في سعادة، وعادوا لتناول المشروبات، بينما وقف أبو عادل ينظر لي وعيناه مليئة بالحقد والبغض، كانت لنظراته تلك باعث سيئ أشعرني بالخوف من رفضه ارتباطي بعادل، ولكني أملت أن يتغير ذلك، ما إن يعلم بأني لن أطالبه بثروة والدي الذي أخذها غصباً هو وأخوته، لم أكن أسعى للانتقام منهم على ما فعلوه برباب حتى وإن أردت ذلك، فلقد كان هناك عقبه تقف بيني وبين هذا الانتقام ..عادل.

انتهت الحفلة بسلام وعدت لغرفتي لأكمل حديثي مع عادل ككل ليلة، حين قاطعت حديثنا طرقات باب غرفتي، أخفيت الهاتف تحت السرير، وفتحت الباب، لقد كانت عمتي ترغب بالتحدث معي قليلاً، لم أستطع رفض دعوتها بالحديث لسببٍ كالنوم بعد تعب الليلة، واكتفيت بإتباعها إلى حيث كانت تتجه، دخلنا غرفة المكتب مرة أخرى وجلست أنا على

الكرسي المجاور لطاولة المكتب، بينما هي أخذت تفتح الخزينة، أخرجت منها صندوقاً صغيراً أعطته لي ..

- افتحيه يا رباب..

- ما هذا يا عمتي؟

- إنه صندوق مجوهرات والدتك .. اعتنيت به كل هذه السنوات حتى اليوم الذي أجدك فيه..

- فتحت الصندوق لأجد كمية لا بأس بها من الحلي والأقراط الثمينه، تبدو لامع ونظيفة وكأن شخصاً لم يرتديها قط.

- ولكن ماذا علي أن أفعل بها؟

- يمكنك الآن الاحتفاظ بها وارتدائها في حفلات القصر ..

- ولكن يا عمتي .. هذا كثير ..

- لا يوجد شيء كثير على ابنة فريا ل.. اذهبي الآن للخلود للنوم وفي الصباح سأذهب أنا وأنتِ إلى النادي لأعرفك على صديقات والدتك ..

- حسناً .. أستأذنك ..

عدت لغرفتي وبحوزتي صندوق والدتي – والدة رباب- الأسود، كنت سعيدة بما أمتلكه وكنت أكثر سعادة بذهابي للنادي حيث يجتمع بنات الذوات، عاودت الاتصال بعادل، الذي سألني عن السر الطارئ،

فأخبرته بما حدث بالتفصيل، أسعده كثيراً تقبل عمتي ومساعدتها لي، وتمنى أن يصبح والده كعمته وأن يتقبلني أيضاً كما فعلت، طلب مني النوم باكراً حتى أستطيع الذهاب غداً إلى حيث سنذهب، على وعدٍ منه أن يلتقينا هناك، أعلم أن الحياة تبتسم لي، ولكنها ما أن تفرج عن شفتاها بابتسامتها العريضة، حتى لا أرى من ابتسامتها غير أسنانها اللامعة التي تعمي الأبصار، لأعود لأتساءل عما تراها ستعميني هذه الابتسامة الشمطاء عن رؤيته.

* * *

obeikan.com

(٢٩)

في اليوم التالي تناولنا الإفطار، ثم توجهنا بسيارتنا الفارهة إلى النادي، حيث كان أصدقاء عمتي ووالدتي بانتظاري للتعرف عليّ، بات الأمر مدعاة للسخرية، فلقد أصبحت كالدمية التي يتناقلها الجميع بين أيديهم، يحاصرونني بالأسئلة التي أعجز عن إجابتها، لتأتي عمتي لتنقذ الموقف، واكتفيت أنا بهز رأسي بينما تجيب عمتي على تساؤلاتهم، أتبادل الحديث عندما يسمح لي، ولا أستطيع التحرك إلا بإذن، أصبحت الجلسة مملة، تمنيت لو أن عادل يأتي لينقذني من براثن أولئك النسوة، تأخر الوقت قليلاً معلناً موعد الغداء، وعادل لم يأت أو حتى يتصل ليعتذر، لم أرغب بتناول الطعام، فلم يكن لدي شهية لوضع أي شيء في جوفي، ولكن الإتكيت يجبرنا على مسايرة الأوضاع التي نوضع فيها، لذا أكلت بضع لقيمات وأنا أتلفت يميناً ويساراً لعلي ألمحه.

انتهينا من تناول الطعام، وهمت عمتي بالتأهب للعودة إلى المنزل، كم رغبت في الانتظار حينها ولو دقائق معدودة، ولكن حضوره بات مستحيلاً، ركبنا سيارتنا التي يقودها عم صلاح، وعدنا للمنزل لأجد عادل هناك بانتظارنا، ما إن رأيته حتى توجهت نحوه مبدية ملامح الغضب، ولكني فوجئت بأنه قد أبداها مسبقاً وكأن شيئاً في هذا الكون قد تحطم.

رحبت به عمتي بسعادة ..

- أهلاً يا عادل .. غريب هل انتظرتنا طويلاً؟ .. لماذا لم تلحق بنا إلى النادي؟.. لقد كان يوماً ممتعاً أليس كذلك يا رباب؟

هززت رأسي أوافقها الرأي، وبداخلي حيرة عن سبب غضب عادل ..

- لا بأس يا عمتي .. فلقد كنت أريد التحدث مع رباب قليلاً..

- إذاً لم تأت لزيارة عمتك يا شقي .. رباب هي السبب .. سأترككما لتتحدثا .. بينما سأذهب أنا لأرتاح قليلاً.. هل تحتاجين شيئا يا رباب؟

- لا .. أشكرك يا عمتي .. سأجلس مع عادل قليلاً وألحق بك..

- حسناً .. أراك مرة أخرى يا عادل.. بلغ والدك تحياتي..

- حاضر يا عمتي ..

التفت للجهة الأخرى بعيداً عنه بدلال ..

- أنا غاضبة منك .. لماذا لم تأت النادي كما وعدتني؟

صمت رهيب يجتاح المكان، وينفخ بداخلي رياح الشك والخوف..

- لماذا لا تجبني؟.. أكيد ليس لك حجة..

- رباب .. أو دعيني أناديك ببديعة .. أليس هذا اسمك الحقيقي؟

عدت للنظر إليه وعلى وجهي ارتسمت ملامح الدهشة ببلاهة..

- ماذا؟ .. ماذا تقصد يا عادل؟

obeikan.com

- أقصد هذا الخبر ..

رمى لي الجريدة، التي تناولتها لأقرأ الخبر الذي تصدر عنوان الصفحة "عودة رباب بنت الذوات لبيتها سالمة بعد غياب طويل". أكملت ما كتب تحت العنوان، لم يكن شيئا ذا أهمية ولو أن أغلبه كاذب، فالخبر يؤكد أنه بعد أن عشت بالملجأ لأكثر من ثلاثة أعوام تبنتني عائلة أخرى وسافرت بي إلى إنجلترا حيث تعرّف عادل عليّ هناك وعاد بي إلى مصر، لم أفهم مغزى الموضوع، فالخبر لا يحمل شيئا يدل على كوني بديعة، لا من قريب ولا من بعيد.

أعدت إليه جريدته وأنا أحاول أن أفهم ما حدث منه ..

- لقد قرأت الخبر ولا أعلم ماذا تريد مني؟ .. أنت تعلم حقيقتي وأن كل هذه فبركات العائلة الكريمة كي لا يعرف ماضي..

- العيب ليس في الخبر بل في من قرأه.. لقد جاءت اليوم لقصرنا امرأة تطلب مقابلة والدي.. هل تعلمين من هي تلك المرأة؟

لم أكن لأعرف من هي، فلو أن والدتي ما زالت حية لاعتقدت أنها من ذهبت إلى هناك لفضحي..

- لا .. لا أعرف..

- إنها نبوية .. هل تعرفين أحداً بهذا الاسم؟

غص الريق في حلقي، حتى كدت أختنق به ..

- لا .. لا أعرف من هي؟

- إنها مديرة الملجأ التي كانت به رباب.. ما إن رأت المرأة الصورة وقرأت اسم ملجئها في الخبر .. حتى أتتني لتؤكد أن من بصورة ليست رباب وأنها تعرف صاحبة الصورة.. أتصدقين أنها تدعي أن اسمها بديعة بنت ربا السفاحة.. أي أنه ذات الاسم الذي التقيتك به..

سقطت على الكرسي في حالة صدمة، لا أدري ما عليّ قوله، فها هي نبوية تحطم حياتي مرة أخرى، بل ها هو الماضي يلاحقني بعجلاته المسرعة التي يكاد يدهسني بها كل مرة، فبماذا سأدرأ الظلم عني، وقد حكم عليّ بأن يغتالني القهر وأنا أرى حياتي كلما تقدمت تعود للخلف، هل سأبكي مبررة أنه لا ذنب لي؟، هل سيصدق دموعي بعد أن عرف بأني خدعته؟.

قاطع شرودي إمساكه لذراعي بقوة يهزه..

- هيا بررري .. اكذبي وعاودي خداعي.. أليس هذا ما تجيده أمثالك من العاهرات؟

- أرجوك ارحمني .. رباب كانت أعز صديقاتي وكانت لتود أن أحيا حياتها..

- بررري لنفسك أخطاءك .. ولكن كيف لكِ أن تخدعيني بهذا الشكل؟.. وكيف لي أن أصدق امرأة لا تعرف في حياتها إلا العهر.. ليتني ما أحببتك ..

- صدقني.. أنا لم أقصد الكذب عليك.. ولكني خفت أن تتركني وتذهب بعد أن تعلقت بك.. كنت أرغب بأن أكون من مستواك حتى تقبل أن

تشاركني حياتك.. صدقني لقد أحببتك بصدق.. ما كان يهمني مال أو شيء غيرك أنت..

- كاذبة .. لم أعد أصدق أكاذيبك .. فلا أرغب بأن يجمعني شيء بعد الآن بامرأة مثلك تجيد اللعب على الحبال..

- أرأيت هذا ما دفعني لفعل ما فعلت.. فلو أني واثقة من أنك ستصدقني لأخبرتك الحقيقة كلها..

رفع يده صافعاً أياي على وجهي ..

- اخرسي ..لم أعد أريد أن أسمع منك أي كذبة جديدة.. ولا تخافي فلن أخبرهم بحقيقتك القذرة.. فلم أعد أهتم ..

- انتظر .. أين ستذهب؟

- سأذهب إلى حيث لا تكونين موجودة.. سأسافر للقاهرة ولن أعود إلى هنا.. وأنصحك إن جئت يوماً ألا أراكِ أمامي..

تركني عادل ومضى دون أن يسمعني، ركضت خلفه و أنا أبكي أناديه، ولكنه آثر الذهاب دون حتى الالتفات، ورحل بسيارته من المنزل تاركاً إياي في حالة هزيمة، عاجزة عن فعل أي شيء، لحقت بي الخادمة ترفعني وتنفض التراب من على فستاني، بينما أنا في حالة بكاء هستيري لم يفهم سببه أحد، أعتقد الجميع بأن المسألة عاطفية، وأني قد أكون قد تشاجرت مع عادل، حتى عمتي حاولت أن تفهم سر ما حدث بيني وبين عادل، ولكني اكتفيت بالصمت، فما من إجابة قد تصلح لأن تشبع

استفساراتها، وعندما لم تجد نفعاً مني، حاولت الاتصال بعادل كي تفهم منه سبب الحالة التي أنا بها، ولكنه هو أيضاً اكتفى بالصمت معللاً أنها قد تكون حالة عابرة، معتذراً بانشغاله، وهكذا مرت أيام لم أذق بها غير طعم البكاء، فلا نوم ولا طعام قد يفيد وقلبي ما زال يتألم، عقلي لا يتوقف عن التفكير به، بل إنه بدأ يدعوني لنسيانه مقابل هذه الحياة الفارهة، التي ستأتي بمائة عادل غيره، ولكن قلبي أبى أن يستسلم لوسوسة عقلي الشيطانية، يقيناً بأن عادل يتعذب مثلي الآن.

* * *

obeikan.com

(٣٠)

لم يعد هناك ما أحتمله، فكرت كثيراً في ترك كل شيء والعودة للست أزهار، فلم يعد هناك ما أخسره، خاصة بعد أن سمعت أن عادل يفكر جدياً بالعودة إلى إنجلترا، هو سيهرب من حبي إلى بعيد، وأنا سأهرب من حبه إلى البعيد الضائع، حيث لا أعرف نفسي كما أنا غير عاهرة، خرجت يوما خفية من المنزل وسافرت إلى القاهرة وحدي، قطعت تذكرة القطار وأخذت أول عربة إلى هناك، كنت أشتاق للحديث مع شخص يفهمني، شخص لا يحكم عليّ مما كنت فيه، ولم أجد أحداً يراني كما أنا إلا الست أزهار، ربما لأنها شعرت يوماً ما بما أشعر به الآن.

ما إن فتح الباب حتى ارتميت بأحضانها أبكي، ربتت على كتفي ..

- كنت أعلم أن هذا اليوم آت.. ادخلي يا بديعة..

- قصدنا غرفتها، وأغلقنا الباب وبدأت أروي لها ما حدث بكل صدق، شعرت لوهلة أن الدماء توقفت في وجهها وكادت المرأة أن تصرخ هلعاً مما سمعت.

- أنت بديعة بنت ريا ..

- نعم .. ولكن صدقيني أنا ابنتها رسمياً بالأوراق فقط.. لكني لست مثلها ولن أكون..

- حكايتك هذه تؤدي إلى الجنون ولا حكاية ألف ليلة وليلة .. من حق الرجل أن يهرب منك ما إن يعلم بكل هذا..

- ماذا عليّ أن أفعل الآن؟.. سيتركني في عذابي ويرحل.. أريده أن يعود إلي.. لا أرغب في فقدانه أيضاً..

- تطلعت فيّ بشفقة، وكأن كلماتها ما كانت لتطبب ما بي ..

- لقد حذرتك يا بديعة مما سيحدث ..وها أنتِ تعانين .. لا حل يا ابنتي إلا أن تعودي إلى هنا.. حيث بيتك وعائلتك الحقيقيين .. حاولي نسيانه إن استطعتي..

- كيف تستطيعين مسح ذاكرة تحتوي على كل صوره وكلماته.. وحتى رائحة ثيابه.. كيف تستطيعين.. أخبريني؟

- لا أستطيع.. فلو أني أعلم حلاً ناجحاً لجربته.. ولكن ماذا تريدين أن أقول.. حاولي معه مرة أخرى .. اذهبي إليه فربما لو رآكِ لعاد قلبه ينبض بحبك مرة أخرى ويسامحك..

- معك حق .. سأذهب إليه.. أعطني الهاتف..

أخذت الهاتف واتصلت بهاتف مكتبه حيث أجابني سكرتيره، الذي أخبرني بالعنوان بعد أن أخبرته بأني زبونة أرغب برفع قضية على زوجي، وأسرعت في النزول من شقة الست أزهار، راكبة أول تاكسي إلى العنوان

المطلوب، كان مكتبة بالدور الثالث من البناية، صعدت الدرج ركضاً حتى وصلت لباب المكتب ألهث كمن ركض مئات الأميال، أسرع السكرتير بإحضار كأس من الماء وإعطائي إياه، وجلب لي كرسي لكي أستريح، ما إن استطعت التقاط أنفاسي حتى سألته عن عادل، فأخبرني بان لديه زبون يناقش معه قضيته وأنه سينتهي قريباً.

انتظرت طويلاً حتى بدا عليّ التوتر، وأنا أحرك قدمي ذهاباً وإياباً، حتى خرج الرجل يصحبه عادل، الذي أخذ يطمئنه بأن القضية ستفوز بإذن الله، ما إن رآني حتى أدار وجهه وعاد لمكتبه، ركضت خلفه وأغلقت باب المكتب.

- ما الذي جاء بكِ هنا؟ ألم أطلب منك ألا تدعيني أرى وجهك؟

- عادل.. أنت محامي.. أي تستطيع التفريق بين الظالم والمظلوم.. ألا ترى أني مظلومة منذ جئت إلى هذه الحياة..

- مظلومة .. هل يعتبر الكاذب والمخادع مظلوم؟

- لو أنك عايشت ما عايشته لعرفت أني ظلمت منذ زمن بعيد.. كم تمنيت أن أموت كل يوم.. وكم ظلمت بسبب كوني ابنه ريا السفاحة كما أسميتها..

- سميتها.. لست أنا فقط من يسميها يا بديعة.. والدتك وعائلتك كلها مجرمون ومن الطبيعي أن لا تختلف ابنتهم عنهم..

- ها هكذا ترى الناس من وجهة نظرك.. وماذا عن الإنسانية التي تعلمتها وحق الإنسان في أن يختار طريقه في هذه الحياة.. هل لأن

عائلتي مجرمون يجب أن أكون مثلهم ولو أني مثلهم لماذا أقف أمامك الآن.. لو أني مجرمة لالتقيت بي في السجن بعد أن قتلت الكثير ممن لا ذنب لهم.. لم آتي هنا لأشرح لك.. جئت فقط لكي أدافع عن حبي لك..

- لم يعد هناك بيننا ما يسمى بالحب.. أنسي كل شيء وكأنه لم يحدث.. فلن أقبل بأن يرتبط اسمي باسم امرأة ملوثة.. أنصحك بالعودة إلى البيئة التي تنتمين إليها..

- لا تختلف عنهم .. كلكم واحد.. ذات النظرة التي أراها في أعين الجميع من طبقتك.. أنت مثلهم فلا داعي لأن تظهر ما لا تؤمن به..

فتحت باب المكتب، وغادرته إلى حيث لا أدري، تمنيت لو أنه يلحق بي، أن يحاول إعادتي إلى أحضانه التي هجرتني، ولكن أحلامي ما كانت إلا أوهام، منيت بها نفسي لأصبرها على ما ابتليت به، أخذت أمشي في شوارع القاهرة تائهة..شاردة، لا أعرف ما عليّ فعله، حتى انتهيت بأن أعود لجمع أغراضي وترك تلك العائلة التي ما كنت لأنتمي إليها يوماً، عدت بالقطار إلى الإسكندرية حيث أقطن مع عمتي فريدة، كانت عمتي تنتظرني وقد أقلقها غيابي طوال اليوم، ما إن رأتني حتى ركضت نحوي تسألني أين كنت؟ أجبتها ببرود في القاهرة، هزت رأسها وقد فطنت أني كنت لدى عادل، وببساطة سألتني عما حدث بيننا، لم أجبها واكتفيت برد مختصر حمل معه كلمتان "لا شيء"، وتركتها متجهة إلى غرفتي بالأعلى، دقائق حتى صعدت إلي مسرعة بعد أن سمعت صوت الخادمة تصرخ طالبة المساعدة.

* * *

(٣١)

سقطت صريعة الحمى ليلتها، أهذي بكلماتٍ غير مفهومة، واسم عادل لا يفارق لساني، حضر طبيب العائلة، وبعد أن انتهى من فحصي شدد على حصولي على الراحة الكافية وتناول الدواء في مواعيده المضبوطة، سهرت عمتي طوال الليل تضع لي الكمادات، حتى انخفضت حرارتي قليلاً، كنت أتناول دوائي وأعود للنوم مرة أخرى، أو بالأحرى للبكاء، حاولت عمتي الاتصال بعادل لكي يأتي لرؤيتي، ولكنه اعتذر منها بضغوط عمله وطلب منها أن تبلغني تحياته، تحياته التي ما هي إلا كلماتٍ تعلمنا قولها للأغراب كنوع من أنواع الإتيكيت، لم أتوقع أن يكون هذا رد فعل عادل بعد أن سمع بخبر مرضي، ولم أصدق أنه بهذه القسوة، لم يأت أحد من عائلتي لزيارتي، فلقد اكتفى عمي حسني بإرسال بوكيه ورد، كما فعل أعمامي الآخرين الذين تنكروا لي.

اكتفيت بوجود عمتي معي، أحببت اهتمامها بي، ربما هي من سأفتقد أكثر ما إن أرحل، اعتدت على تناول الطعام من يدها وعلى تناول الدواء أيضاً، برغم أن شهيتي كانت منعدمة، وهذا ما تسبب في انتكاسة كبيرة ألمت بي وقتها، أحسست معها أن روحي تكاد تفارق جسدي، فكلما تذكرت عادل أشعر بالمرض وقد عشش في جسدي، رافضاً تركه، استسلمت .. نعم استسلمت لكل شيء سيء بداخلي، حتى الضوء الخافت انطفأ

وأصبح الظلام هو المسيطر على تفكيري، فالأمل رحل مغادراً، والصبر قد أقعده التعب مني، وحتى الحب أخذ يقفز بين شواهد القبور باحثاً عن نفسه.

يومان وأنا على تلك الحال، صامتة لا أتكلم كثيراً، آكل على مضض، بل وأعيش أيضاً، حاولت ترك سريري والتحرك لجمع أغراضي للرحيل، ولكن ما إن وقفت حتى سقطت صريعة التعب، فلا تكاد قدمي تقدر على رفعي من ضعفهما، تأتيني عمتي مسرعة ما إن تسمع صوت ارتطامي بطاولة الغرفة، تحملني إلى سريري وتعطيني الدواء، وتطلب مني الخلود للنوم، التصقت عيناي بسقف الغرفة وكأني أبحث عن شيء معين مفقود، حين طرقت عمتي الغرفة يصاحبها عادل حاملاً بوكيه صغير من الورود.

ابتسمت عمتي ما إن رأتني وقد عادت لي الحياة برؤيته ..

- سأترككما لوحدكما قليلاً ..

وما إن غادرت حتى بادرته بكلماتي الغاضبة..

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

- جئت لأطمئن على صحتك..

أدرت وجهي الجهة الأخرى..

- أشكرك .. لا أحتاج شفقة من أحد...

جلس بقربي على السرير، ومد يده يعيد وجهي إلى اتجاهه..

- هل تعتقدين أني هنا شفقة؟.. لقد تعذبت كثيراً منذ تركت يا بديعة.. لن أنكر أني كنت غاضباً من كذبك.. ولكن كما قلتيه لا يجب أن أستسلم لنظرة المجتمع وأحكم عليكِ من الظاهر..

- الآن فقط فهمت ما أعنيه..

- لم يكن الأمر بالهين .. أن أجد نفسي أحب امرأة أخرى غير التي تصورتها.. أن تصبح من أحب شبحاً ليس له أساس من الواقع.. لأجد نفسي أمام امرأة أخرى لا أعرف عنها شيئاً.. لو أنك صارحتيني منذ البداية ربما لكنت غفرت لكِ.. لكنك لم تفعلي.. فماذا توقعتي مني أن أفعل؟.. أن أسامحك بهذه البساطة..

- فعلت ذلك لأني أحبك.. خوفاً من أن أفقدك.. من حقي أن أشعر بالخوف.. فلم يكن سهلاً أن أجد الحب في حياتي.. منذ صغري وأنا أتسول الحنان والحب من أمي وعائلتي وعندما كبرت تسولته من رجلٍ استغل ضعفي وحاجتي له.. كدت أنسى ما هو الحب حتى التقيتك.. عاندت قلبي كثيراً كي لا أسقط تحت سحرك ولكنك كنت أقوى من امرأة لم تذق يوماً طعم الحياة.. ربما أخفيت بعض الأمور عنك لمصلحتك.. لكني ما توقعت يوماً أن تتركني وأنا في أمس الحاجة إليك..

- أنا هنا الآن يا بديعة.. دعينا ننسى الماضي ونبدأ من جديد..

- لقد جرحت قلبي يا عادل.. ولكني ما زلت أحبك..

- وأنا أيضاً يا بديعة.. أشعر بالتعب صدقيني لم أذق منذ افترقنا طعم النوم.. كاد التفكير يفتك بعقلي.. صراع لم أجد نفسي داخله إلا مشتت بين فريقين كلٌ منهم له رأيه وله منهجه..

- ويا ترى من هو الفريق الفائز؟

- القلب يا بديعة.. القلب دائماً ما يفوز في صراعه مع العقل.. هو من يتحكم بكل خطواتنا أردنا أم لم نُرد.. هو الذي يشعرني بالذنب تجاهك دائماً عندما أخطئ في حقك..

- لا أصدق أنني أسمع هذه الكلمات منك..

- صدقي يا بديعة.. أريدك فقط أن تتحسني لكي نتزوج ونسافر معاً لإنجلترا بعيداً عن الجميع.. لنعيش حياتنا معاً في مجتمع لا يفرق بين أحد من أبنائه..

سعدت كثيراً لما أسمعه من عادل، وسعدت أكثر لعودته لي، طلبته أن يضمني بقوة إلى صدره، وألا يتركني مرة أخرى أعاني ما عانيته بعيداً عنه، كنت أتأمل أن تتغير حياتي معه، وأن نسافر بعيداً عن الماضي.. عن كل من يعرفني ويعرف قصتي.. عن كل من يراني مذنبة من دون ذنبٍ اقترفته.

* * *

(٣٢)

أفقت على صوت عمتي تصرخ بالخادمة أن تطلب الطبيب، فلقد ارتفعت درجة حرارتي مرة أخرى لدرجة زادت في هذياني، أمسكت يدها أسألها..

- عادل كان هنا.. أليس كذلك يا عمتي؟

نظرت إلي بعينين تملؤهما الشفقة..

- ارتاحي يا رباب.. لا تتكلمي الآن .. الطبيب قادم في الطريق..

أصررت عليها بتكرار سؤالي مرة أخرى، بحثاً عن إجابة..

- هل كان عادل هنا؟

أطرقت رأسها يأساً..

- لم يأت عادل قط منذ مرضتي يا رباب.. إنها آثار الحمى.. أرجوكِ ارتاحي الآن قليلاً..

لم تستطع برودة تلك الكمادات، إطفاء ما بداخلي من نار الحزن، اختلطت المياه المتساقطة على جبيني ووجهي بدموعي التي أخذت تراق على تجاعيد الحزن التي ترسخت في قلبي، لم يعد لي ما أحيا له، تمنيت

لو أن الموت كان رحيماً، ليأتيني ويقبض ما تبقى من روحي المعذبة، لم أعد أخاف من شيء، لا من الموت ولا من الحياة، فكلاهما عندي سواء، حياة بدون حب، كغيمٍ بدون مطر، لا يسمن ولا يغني من جوع.

جاء الطبيب على هلع، يتحسس جسدي الذي كان كقطعه نارٍ موقدة، تعجب كثيراً من الارتفاع الهائل لدرجة الحرارة، وشعر بالخوف من أن يؤدي هذا الارتفاع إلى الموت، الجميع كان حزينا على مرضي، والخدم يبكونني ويدعون لي بالشفاء، الخدم الذين لم أعرفهم ولم أتعامل معهم قط، كان أكثر رحمة بي من غيرهم ممن أحببت، صحيح أن الطيبة زهرة جميلة، لا تنبت إلا بين الأشواك التي تمنعنا من رؤيتها، فالفقراء هم أشد الناس شعوراً بالآخرين، وأكثرهم اهتماماً بهم.

ظلت عمتي بجانبي تبدل لي الكمادات، أملاً في أن تنخفض حرارتي، ولكن الحرارة ظلت ترتفع بدون توقف، حل منتصف الليل ونحن بتلك الحالة حتى انخفضت حرارتي قليلاً، ناولتني عمتي الدواء، وعادت لغرفتها لأخذ قسطا من الراحة، لا أدري لكم من الوقت غفت عيناي، ولكن لم يبد أنها غفت كثيراً، شعرت بجفاف في حلقي، ورغبت بكأس بارد من الماء ليطفئ ظمئي، لم يكن هناك أحد بجانبي فالجميع كان متعبا، وصوتي المرهق ما كان ليصل لأذن أي أحدٍ منهم، تحاملت على نفسي وحاولت الوقوف، استندت إلى حافة السرير ومشيت بخطوات بطيئة يملؤها التعب والإرهاق، كنت أتخبط الخطى كالعاجزة عن المشي، أسقط هنا وهناك قليلاً حتى استطعت الوصول إلى باب الغرفة، أمسكت مقبض الباب، وقمت بفتحه قليلاً حتى استطعت الخروج، أسندت جسدي على حائط الممر، محاولةً الوصول إلى غرفة عمتي، التي كانت الأقرب لي وقتها.

اقتربت كثيراً من بابها، وقبل أن أناديها سمعتها تتحدث بالهاتف، فاقتربت أكثر في محاولة للاستماع إلى ذلك الحديث، اعتقاداً مني بأنها قد تكون تتحدث مع عادل لتطلب منه المجيء لرؤيتي، في البداية لم يكن كلامها واضحاً، مما دعاني للاقتراب أكثر من الباب، بدا الكلام في البداية عاديا، فتيقنت بأنها لا تتحدث مع عادل، يل تتحدث مع شخصٍ آخر، ولكن من هذا الذي قد تتحدث معه بعد منتصف الليل، ألصقت أذني بالباب أكثر حتى أستطيع فهم ما يحدث، حين سمعت حوارها مع ذلك الشخص، الذي وضح بعد ذلك أنه عمي حسني..

- نعم يا حسني.. أنا بخير ولكني أشعر بالتعب قليلاً.. فالفتاة حرارتها مرتفعة جداً وأنا أشعر بالخوف من أن يحدث لها شيء..

ساد الصمت قليلاً الغرفة، يبدو أنه يحدثها بشيء، لتكمل حديثها بعدها..

- لا أدري.. ولكن هل أنت على يقين بأن هذا الدواء لا يظهر أي أعراض جانبية؟.. أخاف أن يتبين شيء بعد وفاتها ويقومون باتهامنا بقتلها..

ساد الصمت مرة أخرى، ثم أكملت..

- لقد طلبت منك التخلص منها حين كانت صغيرة.. ولكن طيبة قلبك اكتفت برميها في أحد الملاجئ لتعود إلينا مرة أخرى تطالبنا بما هو حقٌ لنا..

صمت ..

- لا تقلق فلن يشك بي أحد .. فالجميع يرى كيف أني أعاملها بلطف.. وأسهر بجانبها طوال مرضها.. حتى هي أصبحت تثق بي منذ أعطيتها صندوق مجوهرات والدتها..

هدوء آخر لا يوضح ما يتم قوله..

- لا تقلق سأستعيده قبل أن يراه أحد ما إن تموت.. ها أنا أسقيها الدواء الذي استبدلته بدواء الطبيب بنفسي.. ولكن أخبرني ما مدة سريان هذا السم.. متى سننتهي منها؟.. لم أعد أحتمل ما يحدث..

صمت أخر، يحمل إجاباتٍ وأسرارا..

- جيد.. ما علينا الآن سوى الانتظار.. أنا أسقيها من هذا السم منذ أصابها المرض.. لقد جاء مرضها هذا في مصلحتنا جميعاً.. آه.. أخبرني ما هي أخبار عادل؟.. لم أعد أراه منذ فترة.. ربما هذا ما جعلها تسقط صريعة للمرض..

لم أفكر وقتها إلا في معرفة أخبار عادل، لذا حاولت التركيز أكثر معها..

- هذا أفضل شيء يفعله.. فالسفر إلى إنجلترا سيريحنا من تساؤلاته الكثيرة عن سبب موتها.. على العموم فالجميع هنا يعرف حالتها المرضية التي ألمت بها ولن يكون هناك ما نخشاه على ما أرجو.. أرجوك اعتذر له وأخبره بأني لن أستطيع الحضور غداً لوداعه وأني أتمنى له التوفيق.. اسمع يا حسني سأنهي مكالمتي معك الآن فأنا أشعر برغبة شديدة في النوم حتى أستطيع مواصلة دور العمة الحزينة حتى ننتهي من هذا الموضوع.. سأتصل بك غداً.. أوه لقد

نسيت أنك ستكون مع عادل بالمطار.. إذاً اتصل بي حال عودتك لأطمئن عليه..

أنهت عمتي المكالمة، كما انتهت حياتي ببضع كلمات، عدت لأدراجي حيث غرفتي، وأغلقت الباب وكأن شيئاً لم يحدث، عدت لنومي على سريري، حدقت بسقف الغرفة وقد طالني التفكير، فعلى ما يبدو حتى أكثر الناس الذين أثق بهم، يرغبون بموتي، بل هم من يخططون له، أصبحت الثقة مجرد سيناريو يمثلونه، لجعلك خاضعاً لهم، مستسلماً لما يفعلونه بك على ثقة بأنهم لن يضروك.

لم أكن حزينة لما عرفته عن تخطيطهم لموتي، أكثر من حزني على رحيل عادل، يبدو أنه قد فكر كثيراً واتخذ قراره، يا ترى هل يهرب من حبه لي؟ أم يهرب من حبي له؟. على الأقل ستستطيع الغربة مساعدته على نسياني، ولكن ماذا عني ما سينسيني حبه إلا الموت، الذي أصبحت أطلبه الآن بشدة، ليأتيني على طبق عمتي الفضي، لقد كان ملك الموت بجانبي طوال هذه الفترة، ولكني لم أستطع رؤيته، ياله من مخادع يكف له أن يتنكر في كل شكلٍ، ليقبض الأرواح، فلقد عملت أمي يوماً كملكاً للموت، تقبض أرواح ضحاياها ومصوغاتهم.

قتلتهم لتستحوذ على ما لديهم من مال ومجوهرات، وها أنا أقتل ليستحوذوا على أموالي ومجوهراتي التي لا أمتلكها حقاً، هذه هي الحياة، نحياها لنأكل فيها بعضنا البعض، الغني يمتص دماء الفقير، والفقير يقتل الغني لينعم بدمائه الثمينة, وكأننا في غابة لا تعرف حيواناتها الإنسانية، كل ما يرغبون به هو الصيد، حتى صيد أنفسهم لو استطاعوا.

ولكن إن كانت هذه غابة، وجدنا أنفسنا بداخلها، فماذا عن الحب؟. الحب الذي قرر أن يغادر، وأن يبيع كل ما تعلمه عن الإنسانية من أجل نظرة دونية، لم يستطع التغلب عليها؛ لأن هذا ما فطره عليه مجتمعه، وما فطر عليه البعض لا يتغير وإن غير صاحبه المكان، لن يعود عادل ولن أعود أنا، كلانا سيغادر إلى حيث قدر له، كلانا سنسلك طريقاً لن نلتقي فيه أبداً، ولكني ما كنت أتمنى إلا أن تأتيني ملائكة الرحمة لتدرأ عني العذاب.

لو كان لي أن أطلب شيئاً آخر قبل أن أموت، لطلبت أن أموت بين أحضانك يا عادل، أن لا يجفف دموعي أحدٌ غيرك، أن أسمع دقات قلبك تتناغم مع دقات قلبي الأخيرة، يا ترى ماذا ستشعر عندما يأتيك خبر وفاتي، هل ستحزن أم سيساعدك هذا على نسياني أكثر؟. ليتني أستطيع لمس وجهك الآن، ليتني أستطيع رؤية عينيك أو سماع صوتك تناديني باسمي.

- بديعة ..

- ها أنا أهذي مجدداً، ها أنا أراك تقف أمامي مجدداً..

- لا يا بديعة أنتِ لا تهذين .. أنا عادل يا بديعة ألا ترين.. لم أستطع تركك وحدك.. لم أستطع تقبل فكرة الابتعاد عنكِ.. قدت طوال الليل مسرعاً كي آتي و أرتمي تحت قدميكِ طالباً منكِ السماح..

- عادل.. أنت عادل.. أين كنت يا عادل من زمان؟.. لقد فات الأوان الآن..

- لم يفت الأوان بعد.. أنا هنا وستكونين بخير وسنتزوج .. وسأبقى معكِ إلى الأبد..

- عادل أرجوك ضمني إلى صدرك .. فلقد أوحشني الشعور بحنانك مرة أخرى..

اقترب مني عادل وضمني إلى صدره، وأخذ يهدهدني كالأطفال بين ذراعيه، ويخبرني عن خططه المستقبلية لنا، كانت كلماته مليئة بالأمل، وكأن لغدٍ شمسا ستشرق عما قريب، لكن شمسي لم تكد تشرق، لتلحق بوقت المغيب، برغم أن عالمي أضاء بحضوره، إلا أن شموعي قاربت على الانطفاء، فخفقات قلبي بدأت تخفت، ولم يعد لصوت قلبي صرير، التقطت أنفاسي الأخيرة من عبق أنفاسه الجميل، وتأملت لآخر مرة كيف يبدو وجه عاشقٍ سيغيب عنه وجه الحبيب، وعلى أمنية أن يعيش عادل سعيداً لبقية حياتي أغمضت عيني في سلام، فهكذا هي الحياة لا يوجد بها مهرب، وكما تدين تدان.

تمَّت

* * *

obeikan.com

نبذة عن الكاتبة:

رانيا حجاج.. كاتبة صحفية.. حاصلة على ماجستير مناهج وطرق تدريس - جامعة القاهرة.. صدر لها مجموعة قصصية (لاتية) ٢٠١٣م - رواية (ذات الوشاح الأخضر) ٢٠١٤م.. صاحبة مدونة أمواج إنسان.. حاصلة على العديد من الجوائز الأدبية.

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com

obeikan.com